حضارة العرب

تاريخهم - علومهم - آدابهم - اخلاقهم - عاداتهم

بقلم

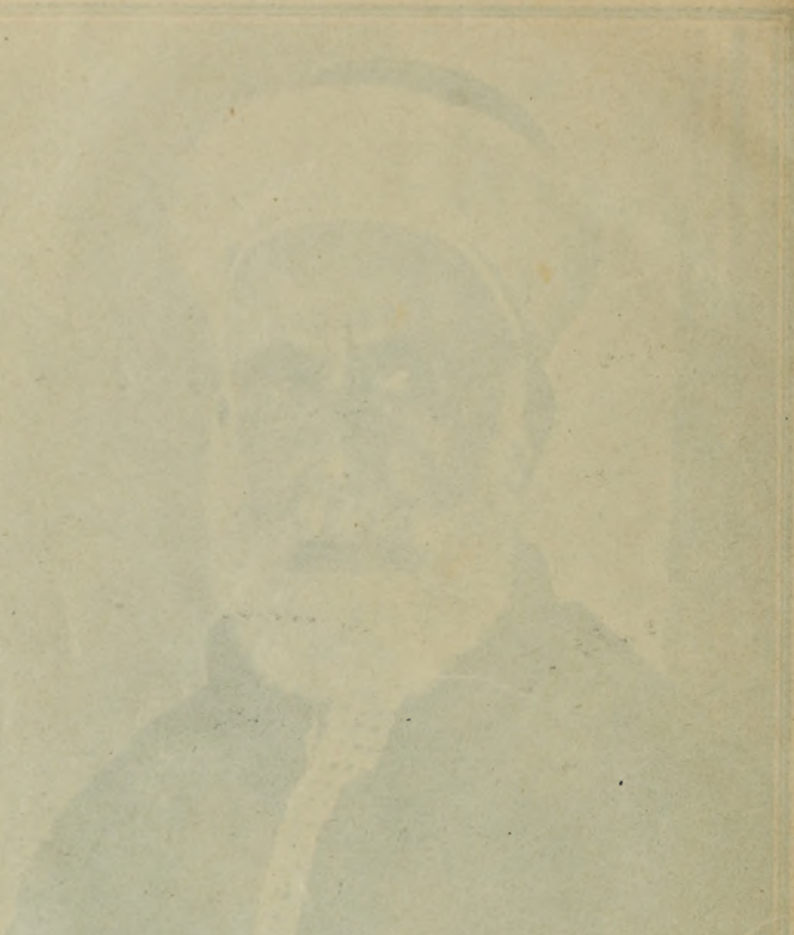
اسعد داغر

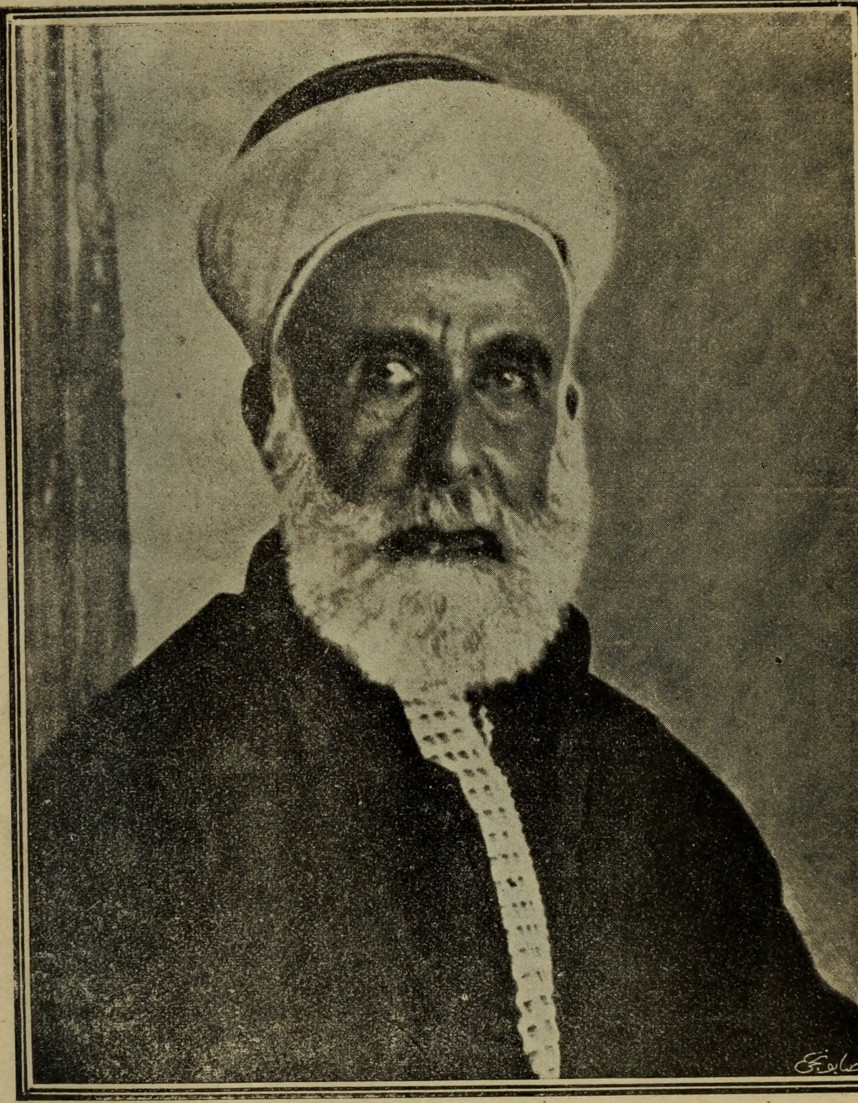
« أحد محرري جريدة المقطم »

ثمن النسخة ٣٥ غرشاً صاغاً

في جمادى الآخرة ١٣٣٦ هـ — و مارس ١٩١٨ م

مطبعة هندية بالموسكي بمصر





صاحب الجلالة حسين الاول ملك العرب

تقدمة الكتاب

الى صاحب السموّ الملكي الأمير فيصل بن الحسين
ايده الله

مولاي ،

حسب العربي أن يقرأ تاريخ أمتهِ ويسرح طرفه في بدائع المنقول عن أُدبائها ، ويستنشق عبير المدنيـة الذي انتشر في سمائها ، ويصغى الى بلابل الفصاحة التي غنت على افنانها ، ويبحث فيما خلفتـه من باهر الآثار وبدائع المصنوعات ، وما تركته من المؤلفات والاكتشافات والاختراعات ، فتستفيق نفسه الكبيرة من هجعتها ، وتنهض همته العاليـة من رقدتها ، ويعـلم ان له من مجد آبائه فخراً وطيدا ، ومن مفاخرهم ارثاً مجيدا ، يخوّله الانتظام في سلك أهـل المدنيات ، والسـير معهم جنباً الى جنب في سبيل الحضارة والحياة .

أجل ان مابلغ اليه العرب من معارف وفخار وسلطان ، لم تبلغه أُمة سواهم في زمن من الازمان ، فقد جابوا الاقطار ، ودوّخوا الامصار ، وامتلكوا القلوب وسيطروا على الافكار ، فلم يدخلوا بلاداً إلاّ عربوها ، ولا امتزجوا بأمة الاّ استمالوها ، ولم تبلغ حضارتهم الى قوم حتى اتبعوها ، والفضل في ذلك كله للمبادئ الصحيحة التي تحلوا بها ، والسياسة القويمة التي ساروا عليها ، فلم تكن تفوتهم شاردة من نظام شؤون الدولة وسياسة العباد ، ولم يغفلوا وسيلة من ورائها تقدم الامة والبلاد ، بل كانوا ساهرين على مصالح الرّعية ، متعاونين على مافيه خير الامة العربية ، لا يأنفون من الاصغاء الى الحكمة ولو نطق بها صغير ، ولا يؤخذون باشراك الخداع ولو نصبها كبير ، فأنشأوا مدنية صحيحة أساسها الادب والعرفان ، وشادوا ممالك عظيمة قوامها العدل والامان ؛ فلم يكن يظلم في عهدهم صغير ، ولو أن خصمه أمير ، ولا بدت موهبة في امرئٍ الاّ قوبل عليها بالهبات ، ولا اتى عملاً مجيداً الاّ سبكت له من الثناء آيات بينات .

هكذا كان العرب وتلك كانت آدابهم . فلا بدع اذا ظل الخلف على مدى الاحقاب يتغنى بعظم فعالهم وباهر اعمالهم ، ولا عجب اذا تناقل أهل الغرب اقوالهم وعلومهم ونسجوا في طراز مدنيتهم على منوالهم ، حتى اذا دالت دولة ذلك العصر الباهر ، وغربت شمس ذلك الامس الدابر ، انقلبت الأمة العربية الى عكسها ، وتنكست أعلامها بعد ما اظلت مشارق الارض ومغاربها ، فاندثر سلطانها . وانحلت عرى قوميتها ، وتقوضت انديتها ، وصمت خطباؤها ، وجف مداد كتابها ، وطويت صحائفها ، بعد ما أناخت عليها الايام بكلكلها ، فذهبت تطوي فيافي الفضاء ، وتحتمل من ضروب الحيف والظلم ما شاء القضاء ، صابرةً على احن الزمان صبر الكرام ، آملة من رجالها خيراً فلم تكذب آمالها الايام ، فقد سمعتم يا مولاي استغاثتها وانبريتم لنصرتها ، ووقفتم يمينكم وحسامكم على تحريرها ، وبذلتم كل مرتخص وغال في سبيل استقلالها . فالى مقامكم السامي ارفع كتابي هذا اعترافاً بما أوليتم العرب من الفضل العميم ، واقراراً بمآثر بيتكم

الكريم . وسترون في سير اجدادكم العظام ، ما انطوت عليه صدورهم من الرحمة والعطف والعدل في الاحكام ، وما ازدانوا به من المناقب السامية الجميلة ، وما اتوه من الاعمال الباهرة الجليلة ، التي تدل على انهم خير سلف يقتدى بهمته وفعاله ، وينسج بعظائم الاعمال على منواله ، وحسبي من سموّكم ان تتكرموا بقبوله ، وتتنازلوا لالقاء نظرة على سطوره ، فذلك يوليني نشاطاً لمتابعة خدمة أمتي ، ويشجعني على انفاق حياتي تحقيقاً لامنيتي ، انه تعالى بذلك كفيل ، والله حسبي ونعم الوكيل ؟

الخادم المخلص

اسعد داغر

تمهيد

العرب

العرب أمة سليلة المجد ، كريمة المحتد ، نالت من العز مقاماً يطاول النجوم ويزحم منكب الجوزاء ، وامتدت من دوحتها فروع زهت بثمار الفضل وأزهار العلم ففاح شذاها في الآفاق، وكان منها الفاتحون الجبابرة والملوك العظام، أصحاب الشرف الشامخ ، والعز الباذخ ، من سارت بذكر مفاخرهم الركبان ، وضربت عدالتهم في كل مكان

وكان للعلم دولة عند العرب رفيعة العماد، وارفة الظلال حافلة بالالوف من الدارسين والباحثين والمصنفين والمكتشفين والمخترعين، والضاربين في انحاء الارض بحثاً عما أودعتها الطبيعة من الآثار، والمتطلعين الى السماء استكشافاً لما فيها من الاسرار ، لم يدعوا علماً الا ولهم فيه يد ثابتة ولا بحثاً الا ولهم فيه قدم راسخة، فضلاً عن علو كعبهم في العلوم الفلسفية والدينية واللسانية، وما امتازوا به من بديع الصنائع

وغريب الفنون وانماء التجارة والزراعة . وكان العلم مرافقاً لهم في كل أرض وطئوها ، وكل بلادٍ افتتحوها ، حتى بلغت حضارتهم أقاصي أسيا وأفريقة وأوربا ، فاقتبسوا علوم اليونان والهند والفرس عن كتبهم ، وفتحوا ما استغلق منها وأوضحوا كل مبهم فيها ، ووسعوا مباحثها وصححوا قواعدها واستنبطوا بتفكيرهم وكدهم واجتهادهم علوماً وفنوناً سناتي على ذكرها في هذا الكتاب

⊱ الفصل الاول ⊰

﴿ العرب في الجاهلية ﴾

يقسم تاريخ العرب الى قسمين العرب البائدة والعرب الباقية فالبائدة هي القبائل القديمة التي بادت ولم يبق لها أثر والباقية هم بنو قحطان وبنو عدنان

وقد مرت العرب قبل الاسلام في ثلاثة أدوار كبرى الدور الاول كانت السيادة فيه لقبائل الشمال ومعظمهم من العرب البائدة والدور الثاني سادت فيه قبائل الجنوب وأكثرهم قحطانيون والدور الثالث عادت السيادة فيه الى

أهل الشمال وأكثر قبائله من العدنانيين وينتهي بظهور الاسلام

العرب البائدة – وأشهر العرب البائدة عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس واميم وجرهم وحضرموت وهم اراميون اي من نسل ارم خلا العمالقة فهم سلالة لاوذ بن سام وقد ملكوا العراق ثم انتقلوا الى شمالي الحجاز مما يلي شبه جزيرة سينا وفتحوا مصر باسم الشاسو أي البدو أو الرعاة ويسميهم اليونان « هكسوس » فكان لهم دولتان كبيرتان احداهما في العراق والاخرى في مصر

واسفر توسعهم في شمال شبه جزيرة العرب عن اختلاطهم بالادوميين والموآبيين والعمونيين ولكن العبرانيين منعوهم من دخول ارض كنعان فوقعت حرب بين الفريقين انتهت بانتصار شاول ملك اليهود عليهم

ووسع داود ملكه الى خليج العجم فخضع له فريق منهم وخلفه ابنه سليمان فضرب الجزية على بعض عرب البادية ثم توفي سنة ٩٧٦ قبل المسيح فانفصلت مملكة يهوذا عن مملكة اسرائيل واستقلت العمالقة والادوميون والموابيون عن اليهود

اما الاراميون فنزلوا في بادية العراق والشام ثم توافدوا الى العراق وتحضروا وتولى منهم ملوك في الألف الرابع قبل الميلاد

وفي اواسط الالف الثالث قبل المسيح بلغ الاراميون دوراً باهراً من الرقي والتقدم وكان منهم سموابي جد اسرة حمورابي فوسع دائرة ملكه وعمل على ترقية شعبه واقتدى به خلفاؤه من بعده فملكوا الامصار ودوخوا الاصقاع وعرفت دولتهم بالدولة البابلية الاولى وعدد ملوكها ١١ ملكاً ملكوا ثلاثة قرون بين القرن الرابع والعشرين والحادي والعشرين قبل الميلاد

ويرى بعض المؤرخين ان الحورابيين جاءوا من جزيرة العرب مباشرة عن طريق عمان . وعلى كل حال فقد اثبت البحث انهم اول دولة عربية أسست في العراق وأفاضت أنوار الحضارة على معظم ممالك الشرق

وقد اظهرت الاكتشافات الاثرية من بقايا تمدن اليمن قبل الاسلام ببضعة عشر قرناً وتمدن بابل واشور ما يثبت ان العرب اسبق الامم الى المدنية والعلم واقدم من وضع الشرائع واول من سن القوانين . وشريعة حمورابي التي



حمورابي

وجدت منقوشة على مسلة من حجر يعود تاريخها الى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد اي قبل شريعة موسى بتسعة قرون وهي تبحث في طبقات الامة والاحوال الشخصية والقوانين التجارية والمدنية والجنائية

ولا يخفى ان موسى ادخل في شريعته كثيراً من احكام شريعة حمورابي وفي ذلك ما فيه من دواعي الفخر للعرب الذين كانوا نبراس الامم في كل ادوارهم الى ان دالت دولهم وتغلبت همجية المغول على حضارتهم



انقاض مدرسة حمورابية منذ ٤٠٠٠ سنة

وقد عثر الباحثون في آثار هذه الدول القديمة على انقاض مدارس فيها مراصد فلكية ونصوص تاريخية وصكوك وعقود ومسائل رياضية ومعجمات ووجدوا قطعاً من الاجر في مدارس للاطفال نقشت عليها حروف الهجاء وجداول ضرب على الاسلوب المعروف اليوم تقريباً . فالعرب في تلك العصور المظلمة بلغوا في نظام الاجتماع مبلغاً لم يدركه سواهم

من معاصريهم واحرزوا من الرقي العمراني ما لا تزال اكثر الامم الحاضرة بعيدة عنه



مدينة بابل

وتدل تلك الآثار على ان نساء العرب في القرون المظلمة كان لهن من الحرية والاستقلال ما لنساء الغرب اليوم فكن يتعاطين الكتابة والتجارة والزراعة ويتقلدن الوظائف وينتظمن في سلك الكهان . وكانت الكهانة النسائية على درجات متفاوتة وكلها محترمة يجلها الشعب وتحميها الحكومة


خريطة بلاد العرب
في القرن العشرين قبل الميلاد
رسمت لكتاب العرب قبل الإسلام
سنة ١٩٠٨
بادية العراق
بادية العرب
دجلة
حلب
حماة
حوران
حران

وللرجل ان يطلق امرأته لسبب شرعي فتربي هي اولادها على نفقة ابيهم واذا شب الاولاد فلها سهم من اسهمهم في ارث ابيهم وللمرأة ايضاً ان تطلق زوجها لسبب شرعي ولا يتم الطلاق الا بعد ما يتقاضى الزوجان امام الكاهن او القاضي. وعلى الجملة فحقوق الزواج كانت متبادلة و واجبات الزوجين مشتركة وكل منهما مسؤول عن الآخر مؤاخذ باعماله في الحقوق المدنية وهما متكافلان في الدين ايضاً

وكانت الحكومة تتولى تسعير السلع والحاجات وتقدر اجور العمال واصحاب المهن بحيث لا يقع عليهم حيف او ظلم وهو مبدأ اشتراكي شريف يحفظ حقوق العمال ومصالح الاهلين ويدرأ عنهم المجاعة والحيف. وكانت من جهة اخرى تعاقب الصانع اذا قصر في عمله فاذا بنى بنّاء بيتاً ضعيف الاساس وسقط البيت على صاحبه فأماته فيقتل البنّاء واذا سقط البيت ولم يقتل احداً فيلزم البنّاء ببنائه ثانية على نفقته

ومن بقايا العمالقة دولتان عربيتان هما النبط والتدمريون فالنبط هجروا ضفاف الفرات بعد سقوط دولة الحمورابيين في العراق فتفرقوا قبائل و بطوناً في جزيرة العرب ثم انشأوا

مملكة عظيمة شملت شمال جزيرة العرب و بطرا والكرك .

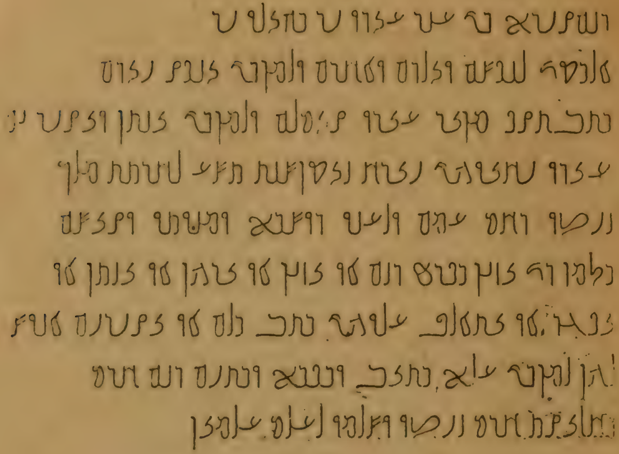


انموذج من نقود النبطيين

تؤيد ذلك الكتابات النبطية التي وجدت اخيراً في اثار بطرا وغيرها

والتدمريون كالنبط من بقايا العمالقة اقاموا في تدمر يتجرون وكانوا اهل عزم وذكاء واقدام فقبضوا على زمام الاحكام واقاموا منهم ملوكاً واتخذوا لغة الشام وكانت

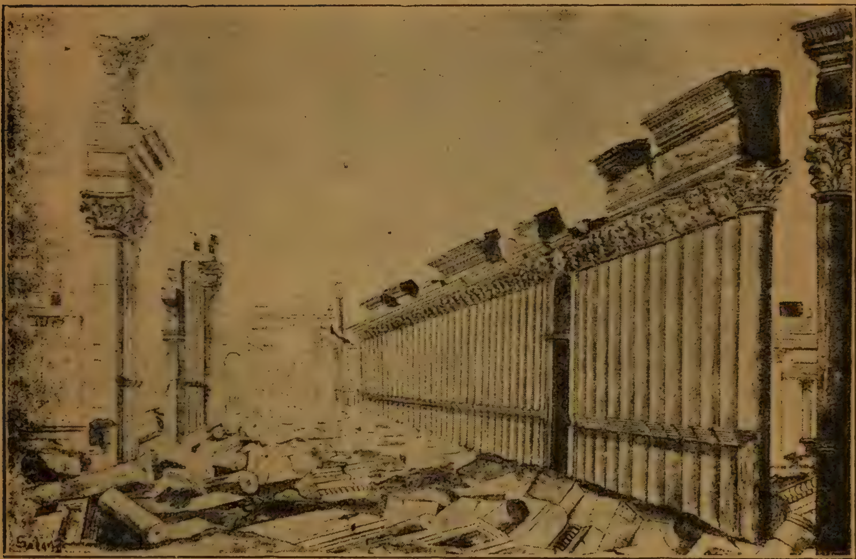
الارامية للمكاتبات الرسمية كما اتخذها النبطيون



كتابة نبطية

وتدمر من اعظم مدن سورية وأجلها آثاراً وكانت مركز التجارة والسياسة في الشرق فكان اهلها يحملون من جزيرة العرب اللبان والمر ومن العراق اللآلئ والانسجة ويجلبون من اقاصي الهند القرنفل والفلفل والحرير والفولاذ والعاج والنيل ويبعثون بها الى مصر ورومية وبزنطة وسائر بلاد اوربا . وكان اعظم ما يفاخر به القياصرة والملوك والاشراف من التيجان والطيالس والاثاث الفاخر منقولاً

اليهم من الشرق على يد النبط والتدمريين



خرائب تدمر

وتدل آثار تدمر على عظمة هذه المدينة ومهارة اهلها بالفنون والصنائع ففيها هياكل عظيمة ذات اعمدة ضخمة منحوتة على النسق الكورنثي وقصور وأروقة تدهش البصر باحكام صنعها وابداع نقشها

وفيها مقابر خارج سور المدينة قائمة على شكل ابراج

مربعة علوها ٨٠ قدماً وعرضها ٣٠ قدماً وقد وجد فيها جثث
محنطة على الطريقة المصرية



زينوبيا ملكة تدمر

وأهم آثار تدمر
هيكل الشمس وهو مربع
الشكل طول كل ضلع
من اضلاعه ٧٤٠ قدماً
يحيط به سور علوه ٧٠
قدماً وله رواق مؤلف
من ١٢ عموداً ضخماً
يؤدي الى دار طولها ٧٩
قدماً في مثلها عرضاً

وفيها صف مزدوج من الاعمدة وباب كبير كان يؤدي الى
المحراب وعليه رسم دائرة البروج ورسم طير عظيم الجثة ومن
حوله صور النجوم . وعلى مسافة مئتي متر من الهيكل رواق
يمتد على طول المدينة من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي

طوله ٣٧٥٠ قدماً وفيه ٧٥٠ عموداً

ويضيق بنا المقام عن تعداد سائر الآثار العظيمة التي وجدت في مدينة تدمر فهي اكثر من ان تحصى وكلها يدل على ما بلغ اليه اهلها من



نقود زينوبيا

الحضارة وما كانوا عليه من العلوم والفنون

القحطانيـة أو دول الجنوب ـ ينتسب عرب اليمن الى يعرب بن قحطان ويعرفون بالعرب المتعربة لأنهم اقتبسوا اللغة العربيـة من العرب العاربة وهي البائدة . ويعرب بن قحطان كان أول ملوكهم تغلب على قوم عاد في اليمن وعلى العمالقة في الحجاز وجعل اخوته ولاة عليهم فولى جرهماً على الحجاز وعاد على الشحر وحضرموت على جبال الشحر وعمان على عمان

وجاء بعده ابنه يشجب بن يعرب وبعده ابنه سبا وكان

لسبا أبناء كثيرون أشهرهم حمير مؤسس دولة حمير العظيمة التي سنأتي على ذكرها

ودالت دولة القحطانيين بتغلب العدنانيين عليهم كما سيجيء

وقد نشأ في اليمن دول عديدة أشهرها الدولة المعينية والدولة السبأية والدولة الحميرية

الدولة المعينية ـ جاء ذكر الدولة المعينية في سفر الاخبار الثاني من التوراة مما يدل على انها قديمة جداً . فانه لما دالت دولة العرب في العراق أقبلت المعينية مع قبائل أخرى ونزلت في اليمن فشادت القصور والمحافد على مثال ما رأت في بابل وتعاطى أهلها التجارة واقتبسوا الاحرف الفينيقية فدونوا بها لغتهم

وقد امتد نفوذهم الى شواطئ البحر المتوسط وشواطئ خليج العجم وكانت الطرق ممتدة في كل شبه الجزيرة كما يستدل من الآثار والنقوش المعينية التي وجدت في العلاء والصفا وحوران وغيرها

وبلغ عدد ملوك المعينية ثلاثين ملكاً وجدت أسماؤهم

منقوشة على آثار هذه الدولة بمأرب وصرواح

والمعينيون هم الذين أسسوا حضارة اليمن ونسجوا فيها على منوال حضارة بابل وكان منهم مشايخ وأمراء ولهم قصور ومحافد بديعة وكان في كل محفد هيكل أو معبود فينتسب القصر الى صاحبه أو الى اسم ذلك المعبود

وكان الملك رأس الحكومة عندهم وهو مطلق الحكم وكان الملك ينتقل بالوراثة الى الابناء والاخوة

ولم تكن عنايتهم بتنظيم الجندية الا بقدر ماتدفعهم اليه الحاجة للدفاع عن استقلالهم بل كانوا يصرفون اهتمامهم الى انشاء المدن واقامة السدود وتطهير الخلجان واستغلال الارض وما شاكل ذلك

<u>الدولة السبأية</u> ـ السبأيون من بني قحطان ويسمون العرب المتعربة تمييزاً لهم عن العرب الذين استوطنوا اليمن قبلهم ولم يعرف تاريخ تأسيس دولتهم تماماً غير انه ورد في التوراة ذكر ملكة سبا الشهيرة « وقد سمعت بخبر سليمان فقدمت لتختبره باحاجي ورأت منه كل حكمة فقالت له حقاً كان الكلام الذي بلغني في أرضي عن أقوالك واعطته مئة



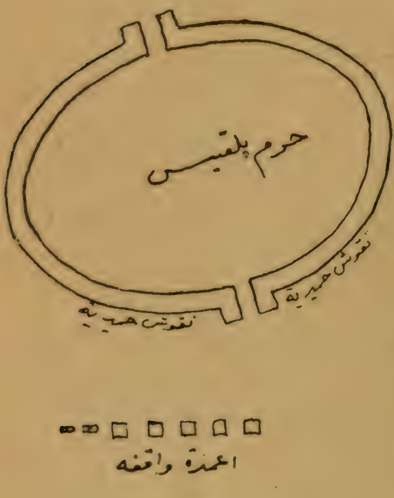
خريطة بلاد العرب في ايام دول اليمن
من القرن الرابع عشر قبل الميلاد
الى السادس بعده
رسمت لكتاب العرب قبل الاسلام
١٩٠٨
(Grimme)
بادية الشام
عرب
بادية النفود
نجد
اليمامة
عمان
الربع الخالي
البحر العربي
مكة
الطائف
يثرب (المدينة)
الرياض
الاحساء
البصرة
بغداد
بابل
عدن
مخا
صنعاء
مسقط
حضرموت
خريطة الجوف الجنوبي لهاليفي
Palangi

وعشرين قنطار ذهباً وأطيابا كثيرة وحجارة كريمة » [1]

وهذا يدل على ان تاريخ هذه الدولة يرجع الى زمن سليمان أي الى القرن التاسع قبل الميلاد أو ما قبله

ويظن ان ملكة سبا التي ورد ذكرها في التوراة هي الملكة بلقيس الشهيرة التي انشأت سد مأرب العظيم

ويؤخذ من آثار دولة سبا انها مرت في أربعة أدوار تميز بالقاب ملوكها ففي الدور الاول يسمى الملك « مكرب سبا » وفي الدور الثاني « ملك سبا » وفي الدور الثالث « ملك سبا وريدان » وكان ريدان محفداً من محافدهم الكبرى وفي الدور الرابع « ملك سبا وريدان وحضرموت وغيرها »



حرم بلقيس

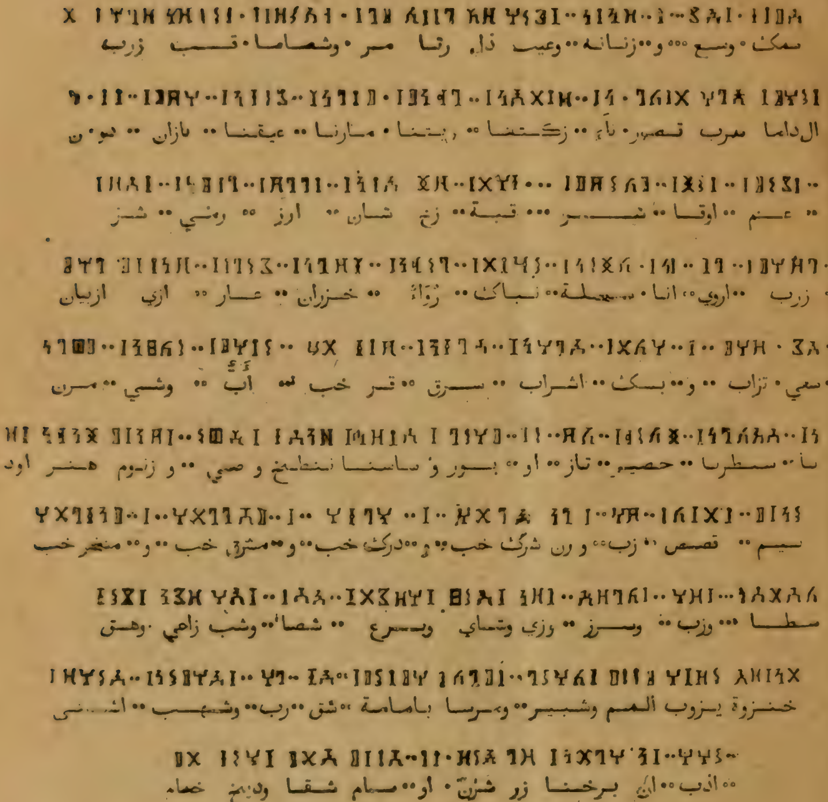
(١) اخبار الايام الثاني ص ٩

وسبا مدينة في اليمن الى الجنوب الشرقي من صنعاء . وكان السبأيون اوفر الناس ثروة في بلاد العرب وكانت تجارتهم المر والبخور والسليخة والبلسان وغيرها وكانت السلع والاطياب تأتي من الهند والحبشة الى سواحلهم فتنقلها قوافلهم الى مصر والشام والعراق فزهت بلادهم وعظم نفوذهم وامتدت سيادتهم الى اطراف جزيرة العرب . وقد احتفروا الخلجان واقاموا السدود ونظموا الري فتحولت بلادهم الى جنات خصبة شادوا فيها القصور وزينوها بانواع النقوش والرسوم متفننين بها ماشاءلهم الذوق والبراعة وغرسوا امامها الحدائق واقاموا حولها الاسوار

وما زالوا في عزٍ ونعيم الى ان تصدع السد فحولوا تجارتهم من البر الى البحر ونقلوا عاصمة ملكهم الى ريدان

وكان اهل ريدان من حمير. واتفق ان سنحت للحميريين الفرصة فتغلبوا على السبأيين ثم اتحدوا معهم وصار لقب ملكهم « ملك حمير وذو ريدان » ثم ملكوا حضرموت وغيرها وكانوا كلما امتلكوا بلداً اضافوا اسم ذلك البلد الى ألقاب ملكهم

وقد انجبت حمير ملوكاً فتحوا الممالك ودوخوا الاصقاع وحاربوا الفرس والحبشة مراراً



انموذج من الخط الحميري

واشهر ملوك حمير شمر يرعش ذكر مؤرخو العرب انه اكتسح العراق وفارس وخراسان وخرب مدينة الصفد و بنى

مكانها مدينة سميت باسمه وحرّفها العرب فصارت سمرقند وقال المسعودي انه ملك بلاد الروم ايضاً

ومنهم اسعد ابو كرب واليه ينسبون غزوات عديدة واعمالاً عظيمة وهو الذى غزا مدينة يثرب وكسا الكعبة وكان أول من تهود من العرب

ثم تشتت شمل السبأيين فاستقل بنو حمير بالملك فضعف بذلك شأنهم وتفرقت كلمتهم وكان الحبشة يومئذفي ابان مجدهم وقوتهم وكانوا قد نزلوا في سواحل اليمن الجنوبية في القرن الاول قبل الميلاد فانتهزوا فرصة ضعف الحميريين وهاجموهم طمعاً ببلادهم وما فيها من الخيرات

وظلت الحرب مستعرة بين الحبشة وحمير في اواسط القرن الرابع للميلاد والوقائع تتوالى وكفة الغلبة ترجح تارة مع هؤلاء وتارة مع اولئك الى ان تم للحبشة النصر نهائياً وذلك سنة ٥٢٥ للميلاد ففتحوا البلاد وولوا عليها اميراً مسيحياً من امرائهم اسمه اسيمافيوس

وأبت عزة نفس الحميريين ان يظلوا تحت سلطة الحبشة فاستنجدوا بكسرى فامدهم بجيش مدرب هزموا به

الحبشة واخرجوهم من بلادهم وولوا سيف بن ذي يزن ملكاً عليهم

وكان ابن ذي يزن حاقداً على الحبشة الذين احتلوا بلاده مدة من الزمن فامعن فيهم قتلاً حتى افنى معظمهم وجعل من بقي منهم خدماً وخولاً

واتفق انه خرج يوماً راكباً والخدم الحبشة بين يديه ومعهم حرابهم فانتهزوا فرصة وجوده منفرداً في وسطهم ومالوا عليه طعناً حتى قتلوه ولم يقم بعده ملك على الحميريين

تمدن اليمن القديم – يظهر جلياً مما تقدم ان اليمنيين كانوا اهل مدنية راقية فانهم ابتنوا القصور الفخمة والهيا كل العظيمة وانصرفوا الى تنظيم شؤونهم وتفرغوا لاستثمار الارض والاتجار بخيراتها واصطناع الاطياب والعطور وبيعها في اسواق اوربا وافريقيه وأسيا . وكانوا يعنون كثيراً بالزراعة فينشئون السدود العظيمة كالجبال يحجزون بها مياه الانهر ويصرفونها من نوافذ محكمة الصنع لري الاراضي المرتفعة . فالعرب اول من اصطنع السدود وكانوا يكثرون منها في الاودية لخزن سيول الامطار والانتفاع بها صيفاً

والى ذلك اشار شاعرهم بقوله

والبقعة الخضراء من ارض يحصب
ثمانون سداً تقذف الماء سائلا

وأشهر سدود العرب او خزاناتهم في اليمن سد مأرب



انموذج من نقود اليمن

انشأوه في مضيق بين جبلي بلقا و بنوا وهو سور عظيم قائم على عرض الوادى أي على مساحة ١٥٠ ذراعاً ولا يزال نحو ثلثه قائماً حتى الآن

ومن سدودهم المشهورة ايضاً سد قصعان وسد قتاب وسد شحران وسد عاد وسد لحج وسد ذي شهال وغيرها مما يدل على درجة الرقي العمراني التي بلغوا اليها . اضف الى ذلك المدن العظيمة التي انشأوها والقصور الفخمة التي شادوها وما اشتهروا به من دقة الصنعة وحسن الذوق واتقان العمل فقد جاء في اشعارهم وصف عرش بلقيس :

عرشها رافع ثمانون باعاً كللته بجوهر وفريد
وبدرٍّ قد قيدته وياقوت بالتبر ايما تقييد

ومن قولهم في مأرب

ومارب قد نطقت بالرخام وفي سقفها الذهب الاحمر

وللسبأيين خاصة ما يقصر عنه الوصف من القصور القائمة على اساطين محلات بالذهب او منزلة بالفضة وابوابها مرصعة بالجوهر والعاج والحجارة الكريمة

* * *

العدنانية او عرب الشمال — يرجع العدنانيون بنسبهم الى اسماعيل بن ابراهيم وكان ابراهيم قد ذهب بولده اسماعيل

مع امه هاجر الى برية بئر سبع وبنى البيت الحرام بمكة فكثر نسله هناك

وبنو اسماعيل هم العرب المستعربة وقد تعلم اسماعيل العربية من جرهم الذين كانوا يقطنون حينئذ في الحجاز ومن ذريته عدنان الذي ينتهي نسبه بالنبي (صلعم)

وكثر بنو جرهم في مكة حيث كان اسماعيل حاكماً فخالفوه واقتضى الامر بعدئذٍ ان يولى رئيس على الشعب ويعين مركز للرياسة فرغب بنو اسماعيل في ان تكون الرياسة لهم وان يكون مركزها في مكة لشرفها الديني ورغب بنو جرهم وهم قحطانيون في ان يكون الرئيس منهم وان تكون صنعاء مركز الرياسة لامتياز أهلها بالقدم والثروة فاختلفوا وقامت حرب بين الفريقين دامت حتى القرن السادس بعد الميلاد واسفرت عن انتصار بني اسماعيل قبيل تأسيس الوحدة العربية بأعوام

وتناسل من بني عدنان عدة فروع اشهرها قضاعة ومضر وربيعة واياد وانمار وكانوا يقيمون في تهامة ونجد والحجاز .


جزیرهٔ سینا

ولبثت هذه القبائل في وفاق ووئام كانها قبيلة واحدة الى ان وقعت فتن بينهم لاسباب لا مجال لذكرها هنا فتفرقوا ونزحوا من اماكنهم .

وتفرقت قبيلة قضاعة في جزيرة العرب ومشارق الشام فانشأ بعضها دولاً في العراق وسورية وغيرها وظل بعضها بادية رحلاً

وتخاصم الاخوان مضر وانمار فهجرا تهامة وذهبا الى جبال السروات فامتلكاها وظل الخصام بينهما زمناً طويلا

ونزحت اياد لحرب وقعت بينها وبين ربيعة ومضر غلبت فيها على أمرها فخرجت من تهامة الى العراق ونزلت قرب الكوفة وجعلت تهدد حدود العجم الى ان جاء كسرى انوشروان فتغلب عليهم وقتل ونفى كثيرين منهم فتفرقوا في تكريت والجزيرة والموصل .

ونزحت ربيعة لفتن وقعت بين قبائلها فتفرقت في نجد والحجاز واليمن . ولربيعة شأن عظيم في تاريخ العرب فهي التي نهضت اولاً في طلب الاستقلال وعملت على الخروج عن سيطرة اليمن .

وأقامت مضر وحدها في تهامه حتى كثر عدد قبائلها وضاقت البلاد بها فنجم عن ذلك عداء استحكم في صدور القبائل ثم تفرقت في طلب الكلأ والمرعى فذهب بعضها الى أطراف تهامه و بعضها الى نجد والحجاز واليمامة ووقعت طائفة منها في عمان وانتشرت قبيلة أخرى في شمالي البصره

وكانت سهول نجد والحجاز مطمح انظار مصر والعراق لوقوعها بين هاتين الدولتين كما كانت من قبل مطمح انظار ملوك بابل ونينوى الذين كان همهم الاقتراب من البحر المتوسط والبحر الاحمر .وقد صد العدنانيون الغزاة عن بلادهم غير مرة في تاريخهم مما جعل قورش ملك الفرس يخشى بطشهم ويبرم معهم محالفة دامت الى ان انقرضت دولة الفرس

وأغار الاسكندر على داريوس فانتصر العرب للفرس واتحدوا معهم على محاربة البطل المكدوني ووقفوه زمناً طويلاً تحت أسوار غزه . وقد فاجأه الموت وهو في الرابعة والثلاثين من العمر فأمن العرب شره

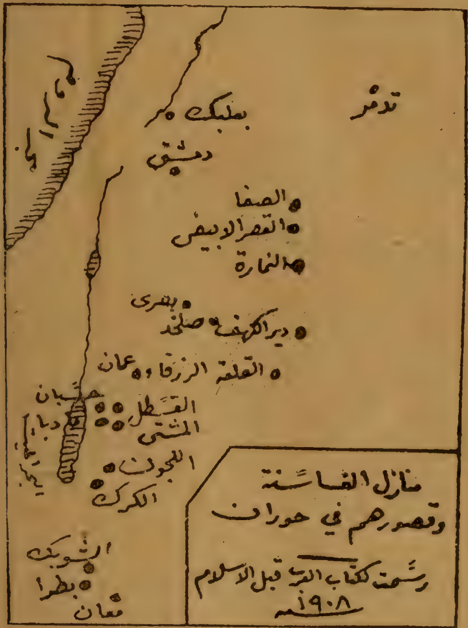
وفي زمن غزوات الاسكندر وملوك الفرس كان

النبطيون على جانب عظيم من القوة والثروة وكانوا لشدة تمسكهم بأذيال الحرية منصرفين لتنظيم جنديتهم وتدريب رجالهم على القتال دفاعاً عن بلادهم . فاذا داهمهم عدو يفوقهم عدداً اعتصموا في الجبال حيث كانوا يقتاتون بلحوم الحيوانات ويشربون من صهاريج ينقرونها في الصخور ويجمعون فيها ماء المطر بعد ما يحكموا سدها ويجعلوا لها علامات لا يهتدي اليها سواهم ثم يتركون عدوهم في تلك السهول الرملية القاحلة الى ان يكرهه العطش والجوع على الارتداد عنهم

والنبطيون من بقايا العمالقة وكانت مدينة بطرا عاصمة ملكهم وقد اتسعت مملكتهم اتساعاً عظيماً فشملت شبه جزيرة سينا وحوران الى العراق من الشرق وبلغت وادي القرى في الجنوب . وطمع بهم الرومانيون فحاربوهم في عهد اغسطس قيصر ولكنهم ارتدوا عنهم بالخيبة والفشل . وحمل عليهم كاسيوس بجيش كبير سنة ١٧٠ ميلادية فهزموه وكسروا جيوشه شر كسرة . وقد كان منهم قياصرة عظام استلموا زمام امبراطورية الرومان في ابان مجدها ، منهم الامبراطور

فيليبس الذي تربع في دست الامبراطورية سنة ٢٤٤ ميلادية فانه كان عربي الاصل من بصرى بحوران

ولكن العرب غلبوا على أمرهم سنة ٢٧٠ ميلادية



منازل الغسانيين وقصورهم في حوران

فاحتل الرومانيون بلادهم وآل بهم الحال الى الضعف والزوال ولا سيما بعد ما انغمسوا في معيشة الترف

أما العرب الذين ظلوا على البداوة في شمال شبه الجزيرة ومعظمهم من العدنانيين فلم يدينوا لاحد بل تمسكوا باستقلالهم وكانوا يناوؤن دولة الرومان و يضايقونها بثوراتهم وغزواتهم الى ان أكرهوها على مسالمتهم

وانتهز العرب فرصة ضعف الرومان فأنشأوا مملكة



بقايا القصر الابيض

الحيرة والانبار سنة ١٩٥ ثم مملكة غسان سنة ٢٩٢ ميلادية واكتسحوا أسيا الصغرى سنة ٢٤٦ الى ان جاء اورلياس بالجيوش الرومانية سنة ٢٧١ فدمر مدينة تدمر وضرب العرب ضربة قاضية

وولى الرومانيون الدولة التنوخية على عرب الشام ثم

الدولة الصالحية التي استمرت الى ان قهرها الغسانيون وحلوا محلها فعظمت سطوتهم ونفذت كلمتهم في حوران وسائر مشارق الشام وفي تدمر وعلى سائر عرب سورية ودان عرب العراق لملوك الحيرة والانبار وانقاد عرب الشام لملوك غسان



بقايا قصر غمدان

فانتشرت مدنية العرب في أسيا الصغرى . ومن آثارهم في تلك الاثناء القصر الابيض وقصر منار وصرح الغدير وقصر المشتى وقصر غمدان وكانت كلها مزينة بأجمل النقوش وأتقن

الرسوم التي تدل على عظمتهم وما بلغوا اليه من العز والسؤدد

وأول ملوك الغسانيين جفنة الاول وآخر ملوكهم جبلة السادس الذي امتد حكمه الى سنة ٦٣٧ ميلادية . ومنهم الملكة ماريا التي أهدت قرطين ثمينين الى الكعبة وضرب



بقايا قصر المشتى

بهما المثل فيقال أثمن من قرطي ماريا وهي التي عرفت في التاريخ باسم ذات القرطين

ويقول النساب ان الغسانيين هم من بني الازد بن الغوث بن مالك بن اود بن كهلان من ولد سبا الذين نزحوا

عن اليمن بعـد سيل العرم فنزلوا على ماء في الشام يقال له غسان فسموا باسمه وفي ذلك يقول حسان بن ثابت الانصاري

أما سألت فانا معشر نجب   الازد نسبتنا والماء غسان

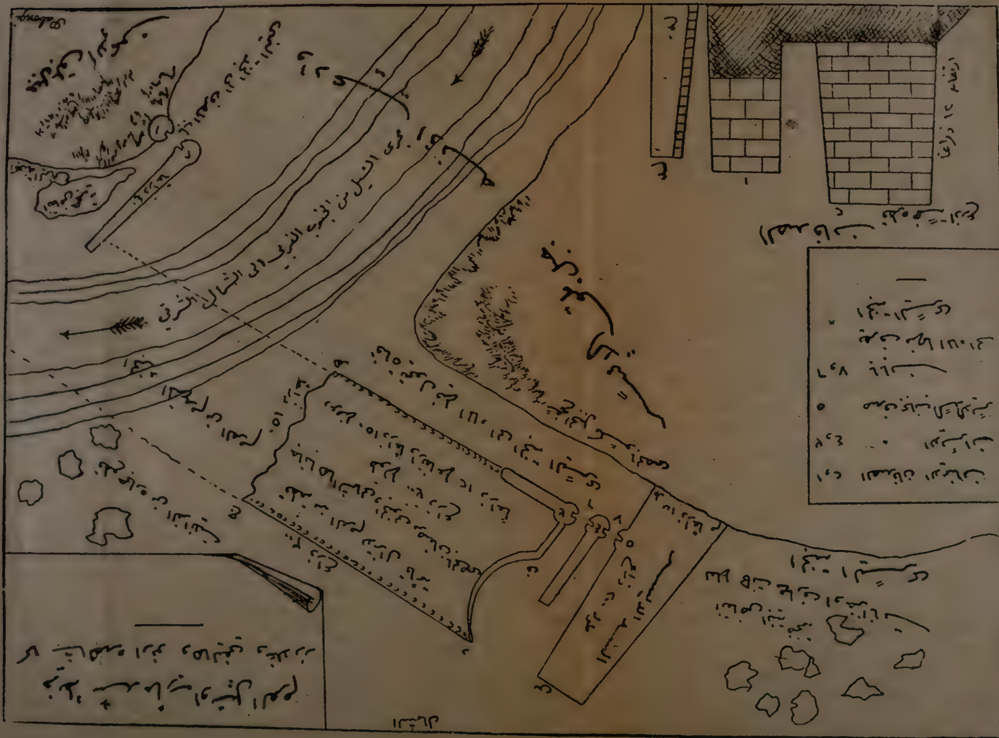
وقد تضاربت آراء المؤرخين العصريين في أصـل الغسانيين فاعتمد فريق منهم على رواية النساب وقال انهم



قصر بصرى في حوران

قحطانيون وذهب فريق آخر وهو الاقل الى انهم من عدنان واستدل على ذلك بأدلة لغوية واجتماعية لا مجال لذكرها الآن. على ان الارجح انهم من قحطان

وكان بين طوائف العرب ولا سيما بـين بني اسماعيل



مجرى النيل من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي

وبني قحطان تنافس عظيم الا ان تخوفهم من الحبشة جعلهم يتفقون وساعدهم على ذلك ما كان بينهم من المشابهة في الاخلاق والعادات كالحماسة والدفاع عن المظلوم والوفاء بالوعد والكرم واباء الضيم وانكار الذات في سبيل الاحتفاظ بحسن السمعة بين القبائل

ورأوا ان الشعر خير وسيلة لنشر أخبارهم وبيان صفاتهم وجمع كلمتهم وتخليد آثارهم فأنشأوا مجتمعات للمناقشة والنظم والانشاد على ما سنبينه في باب الشعر من هذا الكتاب

وكانت الوثنية غالبة عليهم الى ان انتشرت بينهم الديانة اليهودية ثم النصرانية فاعتنقهما فريق منهم وظل الفريق الآخر متمسكاً بعبادة الاوثان ولكنهم أجمعوا كلهم على احترام الكعبة والمبالغة في اكرامها . وقد علقوا عليها المعلقات السبع

حال الجاهلية

شيء عنها

تقدم القول بان العرب فرقتان فرقة بائدة وفرقة باقيـة وقد تكلمنا باختصار عن الفرقة البائدة وما بلغت اليـه من المنعة والعز وقلنا ان الفرقة الباقية متفرعة من اصلين قحطان وعدنان و يضمهما حالان حال الجاهلية وحال الاسلام لحالهم في الجاهلية حال حضاره وعز وقوّة وثروة وقد كان ملكهم في قبائل قحطان وكان منهم الملوك السادة الجبابرة التبابعة

أما سائر عرب الجاهلية بعـد الملوك فـكانوا طبقتين أهل مدر وأهل وبر فأهل المدر هم الحواضر وسكان القرى وكانوا يعيشون من الزرع والنخل والماشية والضرب في الارض للتجارة أما أهل الوبر فهم قطان الصحارى وكانوا يعيشون من ألبان الابل ولحومها منتجعين منابت الـكلأ متتادين لمواقع القطر فيخيمون فيها ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي

وقد بينت الاكتشافات الاثرية ما كان للعرب البائدة والباقية قبل الاسلام من الشرائع القويمة والنظامات الناضجة والمبادئ الصحيحة التي لا يمكن ان يصل اليها الاَّ

من بلغت عقولهم أسمى درجات الرقي والكمال

فان سد مأرب الذي أتينا على ذكره مع مئات غيره من السدود العظيمة والقصور البديعة والمباني الشاهقة على ما فيها من حسن تركيب ومتانة بناء وجمال نقش تدل على تقدم الزراعة والصناعة عندهم الى أبعد ما تصل اليه يد الانسان وتنبئ بما كان لهم من القرائح الوقادة والذوق السامي والتوسع في المعارف الهندسية واتقان الصناعة والتفوق في الفنون الجميلة

وقد جاء في التوراة غير مرة ذكر بلاد العرب ووصف ثروتها واتساع نطاق تجارتها وعظمة مدنها ولا سيما مدينة سبا الشهيرة

وتكلم المؤرخ هيروديتوس الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد عن عظمة العرب وما شادوه من المدن الكبيرة والقصور الشاهقة [١] وقال المؤرخان سترابون وارتميدور ان مدينة مأرب زهرة المدن وأعجوبة الكون ووصفها المسعودي

---

(١) ورد خطاء في صفحة ٣٦ ذكر قصر غمدان بين اثار الغسانيين والحقيقة انه من اثار اليمن وهو قصر مشهور في ظاهر صنعاء

وصفاً يدل على عظمة سكانها

والفضل في مابلغه اليمنيون من العز والسؤدد الى أعمال الري التي قاموا بها ولا سيما سد مارب الذي بنته الملكة بلقيس وهي على ما يظن ملكة سبا التي ورد ذكرها في التوراة

على ان آثار اليمن لاتزال تحت الرمال وآخر ماا كتشف منها قطع النقود التي ابتاعها الاستاذ شولمبرجر من الاستانة وعددها ٢٠٠ قطعة على كل منها رسم الملك وعلى رأسه التاج وهو يشبه رسم ملوك الرعاة « الهكسوس » الذين ملكوا مصر زمناً طويلاً وعثر مريت باشا على بعض تماثيلهم الموجودة الآن في متحف القاهرة

ولم تنته حضارة العرب في الجاهلية بتصدع سد مارب وتقهقر اليمن وسقوط دول العمالقة والنبط بل انتقلت بكل عظمتها الى مملكتي الحيرة وغسان وقد قال المؤرخون وفي جملتهم الدكتور غستاف لبون ان مملكة الحيرة نالت من العز والسؤدد مالم تنله مملكة الفرس وان مملكة غسان كانت تحتوي على ستين مدينة حصينة . وقد أيدت الاكتشافات

الاثرية هذا القول وعثر الباحثون على أقنية عظيمة لجر المياه وأنقاض قصور بديعة وأعمال هندسية مدهشة في جميع البلاد التي ملكها الغسانيون

ولنا دليل آخر على رقي العرب قبل الاسلام وهو اللغة مرآة أخلاق الامة ومقياس آدابها وما من ينكر على اللغة العربية رقيها في الجاهلية فان أشعار العرب وأقوالهم وأمثالهم على ما فيها من الحكمة وتهذيب اللفظ ودقة التركيب وسبك العبارة وجمال المعنى تدل على انهم بلغوا منتهى الرقي اذ لا يعقل ان يكون لهم مثل هذه اللغة ويكونوا بعيدين عن الحضارة أو حديثي عهد بها فانه لا يمكن للغة ان تبلغ من النضج ما بلغته اللغة العربية قبل الاسلام الا بتوالي الاحقاب والدهور كما ان سمو الخيال لا يبلغ بشعب ما بلغت اليه قرائح شعراء العرب الا اذا كانوا على أسمى مراقي الكمالات الخلقية والنفسية

وان كثرة الالفاظ التي وضعوها للمال والاستثمار والاقتصاد وغير ذلك من أسماء السفن والطرق والبقاع تدل على علو كعبهم في التجارة وتفننهم في طرق الكسب وعنايتهم بفن الاقتصاد واقبالهم على الاسفار

ثم ان تحبيذهم لاعمال الشجعان والنابغين منهم يدل على انهم قوم لم يشيدوا حضارتهم على النضار وانما شادوها على أسس الآداب والفضائل والاخلاق الراقية

وكانت النساء على درجة رفيعة من الارتقاء مما يدل على رقي الامة ومبلغ حضارتها وكن ذوات حزم وأدب وكان لهن حرية تامة ورأي محترم وكن متمتعات بجميع حقوقهن في الاجتماع ولهن حق التصرف في اموالهن والاتجار بها . وقد امتازت كثيرات منهن بالشجاعة والادب والشعر والصناعة واشتهرن بالمعارف والآداب والمناقب الحميدة

وقد كانت النساء تصحب الرجال الى ساحات القتال فيضرمن نار الحماسة في صدورهم وكن يداوين الجرحى وينقلن الماء والطعام ويخطبن في صفوف المقاتلين مثنيات على الابطال معيرات الجبناء . قيل ان الخنسا لما بلغها موت ابنائها في واقعة القادسية قالت « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم »

اما اللواتي اشتهرن بالبلاغة والفصاحة ونظم الشعر فاكثر من ان يحصى لهن عدد ومن اشهرهن الخنسا وهي

التي فاقت جميع شعراء زمانها . قيل لجرير : من اشعر الناس ؟ قال : انا لولا هذه الخبيثة (يعني الخنساء) وعلى الجملة فان حالة النساء وارتقائهن من اكبر الادلة على ارتقاء العرب في الجاهلية

وكانت أديان العرب مختلفة قبل الاسلام فكانت قبيلة عاد تعبد الاصنام وعاد ملكها يعبد القمر وثمود كذلك الا ان اصنامها كانت من الحجارة والحديد وكانت حمير تعبد الشمس وكنانة القمر وميسم الدبران ولخم وجزام المشترى وطي سهيلاً وقيس الشعرى واسد عطارد وثقيف اللات وقضاعة وهذيل والاوس والخزرج منات وهو حجر كبير كانوا يذبحون عليه . وكانت قبيلتا غطفان وقريش تعبدان الزهرة وقبائل كلب وسواع ومذحج و بنى مراد وهوزان و بعض قبائل اليمن تعبد اصناماً يقال لها ود وسواع و يغوث و يعوق وغيرها

ثم ان من العرب من كان نصرانياً كقبائل نجران والغساسنة ملوك الشام ومنهم من كان يهودياً كبعض قبائل اليمن والحجاز ومنهم من كان يميل الى الصابئة و يعتقد

بانواء المنازل اعتقاد المنجمين في السيارات ومنهم من عبد الملائكة والجن ومنهم من كان ينكر الخالق والبعث ويقول بالطبع المحيي والدهر المفني ومنهم من اعترف بالخالق وانكر البعث وكان عمرو بن لحى بن حارثة اول من أتى بالاصنام الى البيت الحرام وفي ذلك يقول احد شعراء جرهم

يا عمرو انك قد احدثت آلهة
شتى بمكة حول البيت انصابا
وكان للبيت رب واحد ابداً
فقد جعلت له في الناس أربابا

وكان عمرو هذا ينكر البعث والحشر وفي ذلك يقول

حياة ثم بعث ثم حشر   حديث خرافة يا أم عمرو

وكانت طرق الزواج مختلفة في الجاهلية وكان للمرأة الحق بان تطلق زوجها . وكانوا اذا زوجوا بنتاً من بناتهم زينوها وغيرها ممن لم يتزوجن ليرغب فيهن طالبو الزواج وبعد ما تولم الولائم تركب الفرسان خيولها وتشهر اسنتها وسيوفها وتجتمع ابطال القبيلة وفي ايديهم القسي فيزفون الزوج محمولاً الى مكان زوجه وينثرون على الحاضرين النثار

وكانوا لا يتزوجون بالامهات ولا البنات ولا يجمعون بين الاختين ويعيرون المتزوج بامرأة أبيه . وكانت بعض القبائل لا تزوج بناتها الا بالشعراء

وكانت انواع العقاب مختلفة في الجاهلية فتارة يحكمون بالاعدام وتارة بالدية وتارة يجمعون بين الحكمين اذا كان المجنى عليه شريفاً وكانوا يعفون عن أسرى الحرب اذا أكل الاسير او شرب من مال من أسره وكانوا يقطعون يد السارق ويحجون البيت الحرام وكانت قريش تصوم يوم عاشورا

وكان من خرافات العامة عندهم ان المسافر اذا التفت وراءه لا يتم سفره وانه اذا ضل عن الطريق وقلب ثيابه اهتدى . وكانت النساء لا تبكين القتيل حتى يوخذ بثاره .

وكان من اعتقاداتهم الباطلة الرتم والرتيمة والتفقئة والعر والهامة والصفر والكهانة والقرافة والقيافة وما شاكل ذلك شأن جميع الامم القديمة

وكانوا يتطيرون من اشياء كثيرة منها الابل لانها تحمل اغراض الراحل وقد قال شاعرهم

زعموا بان مطيهم سبب النوى
والموذنات بفرقة الاحباب

والغراب وهو اعظم ما يتشاءمون به وكانوا يسمونه حاتماً لانه يحتم الفراق في زعمهم وقد قال الشاعر :

اذا ما غراب البين صاح فقل له
ترفق رماك الله يا طير بالبعد
لانت على العشاق أقبح منظراً
وأبشع في الابصار من رؤية اللحد
متى صحت صح البين وانقطع الرجا
كأنك من يوم الفراق على وعد

وكانوا يتطيرون أيضاً من العطاس وسبب تطيرهم منه شدة كرههم لطير كانوا يسمونه العاطوس

الفصل الثاني

﴿ العرب بعد الاسلام ﴾

سار العرب بعد الاسلام في خمسة عصور مختلفة بالنسبة الى الانقلابات السياسية والاجتماعية التي طرأت عليهم وهي

اولا عصر الخلفاء الراشدين ويمتد من وقت ظهور الاسلام الى سنة ٤١ هجرية

ثانيا العصر الاموي وهو من سنة ٤١ الى سنة ١٣٢ هـ في المشرق ومن سنة ١٣٨ الى سنة ٤٢٠ في المغرب .

ثالثا العصر العباسي وهو من سنة ١٣٢ الى سنة ٦٥٦ هـ

رابعاً العصر المغولي وهو من سنة ٦٥٦ الى سنة ٨٥٧ هـ

خامساً العصر العثماني ويبتدئ سنة ٨٥٧ هـ

عصر الخلفاء الراشدين

﴿ من ظهور الاسلام الى سنة ٤١ ﴾

جاء الاسلام وقد دالت دول العرب وتشتت أمرهم فلمّ شعثهم ووحد كلمتهم ونهض بهم الى فتح الممالك وتدويخ الامصار

وكان العرب في آخر عصر الجاهلية قوماً على الفطرة تغلب الخشونة في أخلاقهم شأن أهل البادية البعيدين عن معيشة الترف وما تقتضيه من تزويق الظواهر وتكلف المجاملة واللطف واللين

وكان الاتحاد مستحكماً بين أفراد كل من قبائلهم ضد الاخرى فلو استغاث فرد برجال قبيلته من غريب اذاه او عدو اعتدى عليه هبوا جميعاً الى نصرتهِ قبل أن يعرفوا السبب الذي دعاه الى الاستغاثة بهم

وكانوا اذا اعتدى رجل على أحد أفراد قبيلة غير قبيلته قامت قبيلة المعتدى عليه للانتقام من قبيلة المعتدي واذا كان القتيل سيداً من الاشراف وكان قاتله من العامة لا ترضى القبيلة بقتل القاتل بل تطلب سيداً يعادل بشرفه ومقامه مقام قتيلها . فلما جاء الاسلام استأصل هذه المبادئ والعادات من العرب وجمع كلمتهم على اختلاف انسابهم ومواطنهم . وكان سلوك الخلفاء الراشدين خير مثال للجمهور وامتن اساس للمبادئ الدمقراطية التي سارت عليها الامة العربية في ابان مجدها فقد كان ابو بكر الصديق يأخذ

كل يوم خمسة دراهم فقط من بيت المال فلما توفي كانت تركته ثيابه و بعيره فقط .

وكان عمر بن الخطاب ينام على مدرج الكعبة مع الفقراء وحدث في عهده ان جبلة بن الايهم ملك غسان ضرب رجلاً من العامة وهشم وجهه ولما حكم عمر بان يعامل الضارب بالمثل قال جبلة : « كيف ذلك يا امير المؤمنين وانا ملك وهو من السوقة » فاجابه الخليفة ان الاسلام جمعك واياه فلست تفضله بشيء الاّ بالتقى » فلم يحتمل جبلة ذلك وفر الى هرقل بالقسطنطينية .

وكان لكل من العامة الحق في ان يشكو من يعتدي عليه ملكاً كان أو أميراً وكان على المعتدي ان يقف الى جانبه للمحاكمة ويتعاقب مثل احقر السوقة ولم يكن الخلفاء يعفون عن المذنبين بعد صدور حكم القضاة عليهم

وقد خطب ابو بكر الصديق في الناس يوم بايعوه بالخلافة فقال « ايها الناس انكم قلدتموني الحكم عليكم فان فعلت خيراً فعاونوني عليه او شراً فردوني عنه »

وكان عمر بن الخطاب يسهر الليل في خفارة المدينة

المنورة لكي لا يؤذى الغرباء فيها أو يعتدى عليهم . وشكا اليه يهودي من عامل فكتب اليه يقول . « اما ان تعدل او تدع الحكم »

وكما ان الاسلام احدث انقلاباً عظيماً في أخلاق العرب وعاداتهم كذلك احدث تأثيراً عظيماً في آدابهم .

فقد كانت الخطابة بالغة شأواً بعيداً في ابان الجاهلية ولكن الاسلام زاد العرب فصاحة و بلاغة بما اقتبسوه من القرآن الكريم من الالفاظ الشائقة والآيات المنضدة .

وكذلك الشعر فانه زاد رونقاً بانتقال العرب من البداوة الى الحضارة ومخالطة الامم الاخرى على ما في ذلك من توسيع نطاق الافكار والتصورات وتعدد الاغراض الشعرية

وعلى الجملة فقد كان لظهور الاسلام تأثير عظيم في اللغة العربية واساليبها وعواطف الناطقين بها وهم اصحاب شعور راق وذوو نفوس حساسة تكاد تطير على اجنحة الخيال .على ان ثمار هذا التأثير لم تنضج الا في عصر الامويين

ابو بكر — وعدد الخلفاء الراشدين اربعة اولهم ابو بكر الصديق. وكان النبي (صلعم) خلفه في الصلاة وقت مرضه

فقال المسلمون « رضيه رسول الله لديننا افلا نرضاه لدنيانا » وبايعوه بالخلافة في ربيع الاول سنة ١١ للهجرة

وأول عمل بدأ به ابو بكر هو انه سير جيشاً على قضاعة وزوده بالوصايا التالية :

« لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تحرقوا نخلاً ولا تقطعوا شجرة. مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الاّ للاكل »

ثم بعث باربع فرق من الجنود بقيادة اربعة من كبار قواد العرب الى جهة الشام فاجتمعت بجوار اليرموق وانقضت على جيوش الروم فهزمتها شر هزيمة

ولم يقتصر فضل ابي بكر على الفتوحات بل عمل على جمع شتات العرب وكانوا قد عادوا الى الخلاف والشقاق بعد موت النبي (صلعم) فبذل همة عظيمة في هذا السبيل وتمكن بحزمه وحكمته من التوفيق بينهم

عمر بن الخطاب ـ وتوفى ابو بكر في جمادي الآخرة

سنة ١٣ هـ فبويع بالخلافة بعده عمر بن الخطاب وهو الذي بنى الكوفة (سنة ١٧ هـ) والبصره وقد تحول الى الفتوح فلم

يمض طويل زمن حتى احتلت جيوشه بلاد العرب وما جاورها الى بلاد السند وارمينية

ثم سير ابا عبيدة الى دمشق فحاصرها وفتحها وسير عمرو بن العاص الى بيت المقدس فطلب اهلها الصلح



عمر امام بيت المقدس

بشرط ان يتولى عقده امير المؤمنين فكان لهم ما طلبوا

وفي عهد عمر فتحت مصر على يد عمرو بن العاص وتوفي عمر قتيلاً سنة ٢٤ هـ بينما كان يصلي وقد طلب اليه

الصحابة ان يوصي فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف

عثمان – وبويع عثمان بن عفان بالخلافة وله من العمر ٧٠ سنة ونيف فلم يهابه القوم ولم يتم على يده فتوحات تذكر

علي بن ابي طالب – وبويع بعده علي بن ابي طالب فوقعت في عهده حروب اهلية سببها الاحقاد والاشاعات التي راجت حول مقتل عثمان



انموذج من نقود الخلفاء الراشدين

وفي السنة الاربعين للهجرة تآمر ثلاثة من الخوارج على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص فاصابوا علياً بضربة سيف مسموم واخطأوا الاثنين الآخرين .

ومال الجند الى مبايعة الحسن وطلبوا اليه ان يسير لمحاربة معاوية الذي كان يتوق الى الخلافة فرأى الحسن اطفاءً لشعلة الفتن المتقدة بين العرب ان يراسل معاوية في

طلب الصلح فارسل اليه معاوية صكاً مختوماً بلا كتابة ليكتب الحسن فيه ما يشاء من الشروط ففعل وكانت أهم شروطه تأمين جيشه وانصاره . وقد بويع معاوية بالخلافة في سنة ٤١ هجرية .

الدولة الاموية في الشرق

﴿ من سنة ٤١ الى سنة ١٣٢ ﴾

تنتسب هذه الدولة الى أميـة بن عبد شمس بن عبد مناف الاب الرابع للنبي (صلعم) وعدد خلفائها ثلاثة عشر خليفة من أسرتين احداهما السفيانية والاخرى المروانية.

وقد اتسعت الدولة العربيـة في عهدهم اتساعاً عظيماً فاضافت الى املاكها بلاد السند وقسماً كبيراً من تركستان حتى حدود الصين وعدداً من حصون الروم ومعاقلهم في الاناضول وكانت أعلامهم تخفق على غربي آسيا وشمالي افريقيا وقسم كبير من جنوبي اوربا وقد عززوا اسطولهم في البحر المتوسـط فزادوا على مملكة القياصرة عزة ومنعة وهابتهم امم الارض وحاذرت بطشهم

وانتقلت كرسي الخلافة في عهدهم الى الشام فاوجب

ذلك احتكاكهم بالامم المتمدنة في ذلك الحين فاقتبسوا علومها واوجدوا تمدناً خاصاً بهم ووضعوا علوماً وفنوناً جديدة اقتضاها ذلك التمدن

وفي جملة ما وضعه العرب من العلوم في تلك الاثناء علم النحو لان الفساد كان قد تطرق الى اللغة العربية بمخالطة الاعاجم ثم اهتموا بالعلوم التاريخية واول ما شرعوا بتدوينه منها تاريخ الدول الاجنبية وغايتهم منه فائدة الخلفاء واطلاعهم على احوال الامم الاخرى ليقتبسوا من اخبارها كل محمدة.

وقد أزهر الشعر في زمن الامويين وارتقت الخطابة وراجت سوق الادب وكثر الشعراء ونظموا في كل باب ومعنى

وفي عصرهم وضع الفقه والتفسير والصرف والنحو وفيه رسمت قواعد اللغة العربية وضبط الخط وبدئ بوضع العلوم الطبيعية .

وتمتاز هذه الدولة بانها كانت عربية الصبغة لم تمسسها يد اجنبية ولم يكن لعنصر غير عربي حول او سلطان فيها لذلك بلغت شأواً بعيداً من المجد بانتصاراتها وفتوحاتها وتوسيع املاكها .

ولكن ذلك كله لم يكسب الخلفاء الامويين المنزلة التي استحقوها بأعمالهم المجيدة نظراً الى ترفعهم عن الاحتكاك بكل طبقات الامة وعدم اصغائهم لنصائح العقلاء كما كانت الحال في عهد الراشدين مع ان من بني أمية كثيرين أوتوا من الحزم والروية والدهاء والحكمة وكرم الاخلاق ما خلد لهم ذكراً لا تمحوه كرور الايام

معاوية — واولهم معاوية الذي تولى الخلافة والشقاق مستحكم بين العرب والفتن الداخلية قائمة على قدم وساق .



نقود معاوية بن ابي سفيان

فابدى من الحكمة والدراية في ادارة شؤون الامة ما اكسبه ثقتها وحبها ومكنه من السير بها في سبيل المجد . وقد احسن اختيار مساعديه . وكان مشهوراً بالحلم وكرم الاخلاق لا يغضب ولو شتم ولايذخر سعياً أو مالاً في سبيل أمته

حتى قال فيه عبد الله بن عباس « ما رأيت أحق بالملك من معاوية ». وفي عهده حاصر العرب القسطنطينية المرة الاولى بقيادة ابنه يزيد .

يزيد — وتوفي معاوية سنة ٦٠ هجرية فبويع بالخلافة بعده ابنه يزيد وملك نحو اربع سنوات حدث فيها ثلاث حوادث فظيعة اساءت سمعته وهي اولاً قتل الحسين وثانياً حصار المدينة واباحتها لجيشه ثلاثة ايام وثالثاً حصار الكعبة وكان عبد الله بن الزبير قد اعتصم بها خوفاً من يزيد الذي حقد عليه لانه امتنع عن بيعته .

معاوية الثاني — ولما مات يزيد بويع ابنه معاوية بالخلافة ولكنه رأى نفسه غير كفء لها فاستقال

واشتد في اثناء ذلك ساعد عبد الله بن الزبير فبويع بالخلافة في الحجاز والعراق . وقام مروان بن الحكم مطالباً بها ووقعت معركة بينه وبين انصار ابن الزبير في مرج راهط اسفرت عن انتصاره ثم عاجله الموت قبل ان تحقق آماله

عبد الملك — وتولى الملك بعده ابنه عبد الملك سنة ٦٥

وكان رجلاً حازماً وبطلاً مغواراً ذا ارادة لا يفلها الحديد وقلب لا ترهبه النوازل فحارب ابن الزبير وتغلب عليه فدانت له البلاد العربية قاطبة

الوليد — وتوفي عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ فخلفه ابنه الوليد وكان زهرة خلفاء بني أمية فاستتب الامن في عهده وانصرفت الافكار الى توسيع حدود الدولة وخفقت اعلام الامويين على بخارى وسمرقند والاندلس وقسم كبير من بلاد الروم .



انموذج من نقود الامويين في عهد هشام

ونظم الوليد شؤون الدولة فاصلح الطرق وحفر الآبار وبنى الجوامع الى غير ذلك من الاعمال النافعة ثم توفي سنة ٩٦ هجرية

سليمان — وخلفه اخوه سليمان وكان صارماً عنيداً قليل العناية بشؤون الامة فكرهه الشعب . وفي عهده

حاصر مسلمة بن عبد الملك مدينة القسطنطينية المرة الثانية

عمر بن عبد العزيز — وتوفي سليمان سنة ٩٩ هجرية
خلفه عمر بن عبد العزيز بن مروان الملقب بالصالح لصلاحه وعظم عنايته ورأفته برعاياه فانصرفت الافكار في عهده الى

من الآلات الحربية العربية

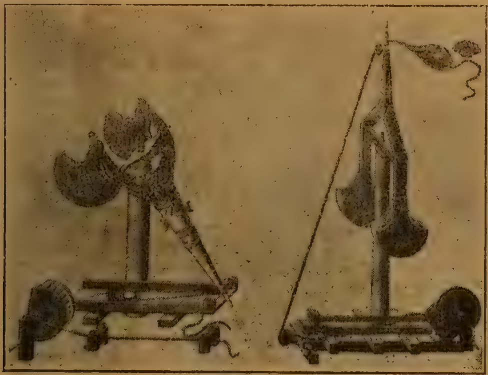


(منجنيق لرمي السهام)

العلوم الدينية واللغوية ونقل مؤلفات الاجانب الى اللغة العربية ووضع اساس العلوم الطبيعية والفلسفية

يزيد الثاني — وتوفي عمر سنة ١٠١ فخلفه يزيد الثاني
ابن عبد الملك وحكم اربع سنوات

هشام — وآلت الخلافة من بعده الى اخيه هشام سنة ١٠٥ ه وكان عاقلاً حازماً ورعاً فاجمعت القلوب على محبته وانتظمت احوال الدولة في عهده ومن نوادره التي تدل



(منجنيق)
من آلات الحرب العربية

على تواضعهِ ونبل اخلاقه انه شتم مرة رجلاً من العرب فقال له الرجل اما تستحي ان تشتمني وانت خليفة الله في الارض فنكس هشام رأسه حياءً ثم قال : اقتص مني قال : اذاً انا سفيه مثلك . قال : فخذ مني عوضاً من المال . قال : ما كنت لافعل . قال : فهبها لله . قال : هي لله ثم لك . فخجل هشام وقال والله لا اعود لمثلها ابداً .

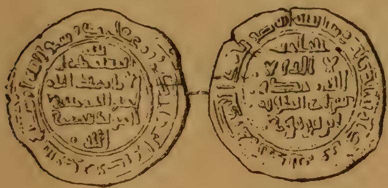
الوليد الثاني ويزيد الثالث — وتوفي هشام فخلفه ابن اخيه الوليد الثاني بن يزيد بن عبد الملك . ثم ابن عمه يزيد الثالث : وقد ملك الاول نحو سنة وقتل وملك الثاني نحو ستة اشهر ثم توفي وكان كلاهما مدمنا للخمر منغمساً في انواع اللهو فنشبت الفتن في البلاد ولا سيما في جهات خراسان فكانت تلك فرصة للعباسيين انتهزوها للتغلب على بني أمية .

وحدث انه لما توفي يزيد اراد بعض رجال الدولة تولية ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك . فقام مروان بن محمد بن مروان وكان والياً على ارمينية مطالباً بالخلافة فقاتل دونها حتى ظفر بها لنفسهِ فانشقت الاسرة المالكة وقام هشام بن عبد الملك مع اخوته ومريديه على مروان ووقعت الحرب بين الفريقين فازداد نفوذ العباسيين بذلك وانقادت الكوفة لهم وبايعت ابا العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بالخلافة . فارسل جيشاً بقيادة عمه عبد الله بن علي لمحاربة مروان فهزمه واقتفى اثره حتى حدود مصر . وتوفي مروان سنة ١٣٢ وكانت وفاته خاتمة الدولة الاموية في الشرق

الدولة الاموية في الاندلس

الاندلس قطعة من جنوبي اوربا يفصلها عن أفريقية بوغاز جبل طارق وعن فرنسا سلسلة جبال البيرينه فتحها العرب في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٢ وجعلت ولاية تابعة لبني أمية .

فلما ضعفت شوكة الامويين في الشرق عجزوا عن



انموذج من نقود الامويين في الاندلس

ادارة شؤون املاكهم في الغرب فاهملوا امر الاندلس الى ان سادتها الفوضى وتفاقم الخلاف بين العرب فيها وكانوا فريقين عرب مضر وعرب اليمن وكل فريق منهما يطلب السلطة له وقد اتفقوا أخيراً على ان يتناوبوا الحكم فيكون سنة للمضريين وسنة لليمنيين وولي اولاً يوسف بن

عبد الرحمن الفهري فلما اتم السنة من ولايته ابى التنازل عنها حسب الاتفاق فنشب القتال بين الفريقين

وفي تلك الاثناء سقطت الدولة الاموية في الشرق وحلت الدولة العباسية محلها . فعاملت بني أمية معاملة العسف والجور . ودعا السفاح أمراءهم الى وليمة اعدها لقتلهم



كبش لمهاجمة الاسوار وفيه جنود

من آلات الحرب المستعملة عند العرب

فنجا منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وكان شريف النفس ثاقب الفكر عالي الهمة فقصد الاندلس وكانت الحرب الاهلية على اشدها وكفة المضريين راجحة فيها فانضم اليه اليمنيون وتغلب بهم على معارضيهم

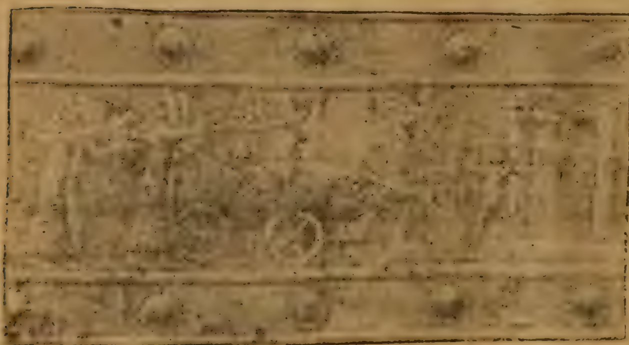
فاسس الدولة الاموية في الاندلس وهي تبتدئ سنة ١٣٨ وتنتهي سنة ٤٢٠ هـ .

تولى الملك على الاندلس خمسة عشر ملكاً من بني أمية كانت مدة ملكهم ٢٨٢ سنة ثم انتقل الملك منهم الى ملوك الطوائف ثم الى بني الاحمر سنة ٦٢٩ هـ وفي عهدهم انتهى ملك العرب في الاندلس وذلك سنة ٨٩٦ هـ .

واعظم مجد نالته الاندلس كان في عهد الامويين لانهم كانوا على جانب عظيم من الحكمة والاقدام وحسن السياسة والتفاني في سبيل تقدم البلاد واسعاد العباد فضلاً عن عظم اهتمامهم بنشر العلوم والفنون وتوسيع نطاق التجارة وانماء الزراعة وتنشيط الادباء وتعضيد رجال الفن . فكان ملوكهم يفاخرون بالعلماء ويقربونهم اليهم ويكتبون على المباني الجميلة اسماء المهندسين والبنائين الذين صنعوها تنشيطاً لهم ولغيرهم من اهل الفن فكان الشعب يزاحم بعضه بعضاً مندفعاً الى الامام لما يجده من تنشيط الملوك للعلم وعلو منزلة العلماء في نظرهم .

وكانت مملكة العرب في الاندلس تحتوي على اكثر

من اربع مئة مدينة كبيرة وكان في قرطبة وحدها ٢٠٠ الف بيت وستمائة مسجد وخمسون مستشفى وثمانون مدرسة كلية فضلاً عن المدارس الابتدائية وتسعمائة حمام . وكان دخل الخلفاء فيها ١٢ مليوناً و ٤٥ الف دينار من الذهب خلا غنائم الحرب والجزية التي كانوا يتقاضونها من البلاد التي فتحوها .

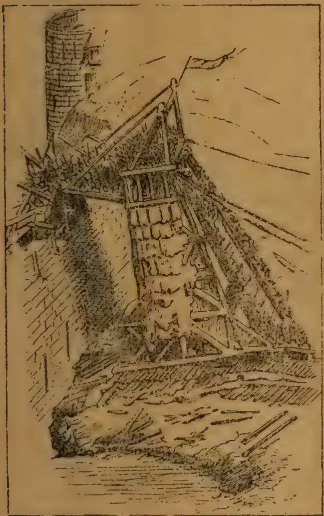


دبابة لهدم الاسوار

من آلات الحرب المستعملة عند العرب

عبد الرحمن — واول من وضع اساس تلك الحضارة الباهرة في الاندلس عبد الرحمن الاموي وقد كان بطلاً مغواراً وسياسياً محنكاً قدم الاندلس فاراً من وجه العباسيين

على ما تقدم لا يملك من دنياه سوى الثوب الذي يستر جسمه وخادم امين لم يشأ مفارقته ومع ذلك فانه استطاع بحذقه وشجاعته وحسن سياسته ان يحيي في الغرب مجد اجداده الامويين بعد ما اندثر في الشرق . وكانت البلاد في هياج واضطراب تهددها الاخطار من الداخل والخارج فاستلم زمامها بيد من حديد ونظم شؤونها واصلح ادارتها وسلك مسلكاً جعل البلاد المتاخمة تجل قدره وتخشى بطشه وتوفي سنة ١٧٢



آلة لتسلق الاسوار
من آلات الحرب العربية

هشام — ولم يكن ابنه هشام أقل منه شجاعة واقداماً وحسن سياسة وقد فاقه بالسهر على راحة الرعية وعظم الاهتمام بشؤون كل من أفرادها لا فرق في ذلك بين الكبير والصغير فكان يرسل بين حين وآخر من

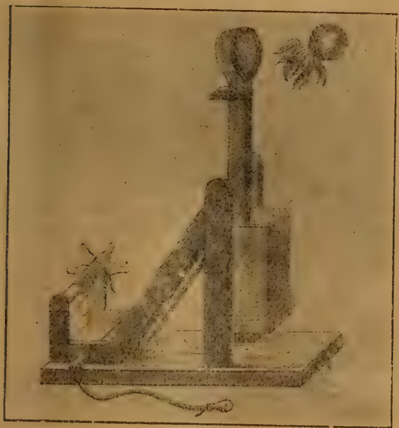
يستفهم الناس عن احوالهم وعن سير عماله وموظفيه معهم ليعزل منهم من يستحق العزل ويكافئ من كان أهلاً للمكافأة . وكان الشعب راتعاً في بحبوحة الهناء والراحة والامن ومیازیب الثروة تتدفق عليه

ومما يدل على شرف مبادئ الملوك وعظم اهتمامهم بالرأي العام في ذلك العهد انهشاماً سأل وزيره بعدما جدد بناء قنطرة قرطبة : «مايقول الناس في ذلك؟» فاجابه الوزير : « يقولون انك ما بنيتها الا لتمر عليها الى الصيد » فاقسم هشام ان لا يمر عليها ابداً وقد برّ بقسمه : وتوفي سنة ١٨٠

وممن اشتهر من ملوكهم بالعلوم والفنون عبد الرحمن الثاني فقد كان متضلعاً بالفلسفة والشرع وغيرهما من العلوم ويجيد نظم الشعر ويحسن الموسيقى وكان يقدر اهل العلم ويجزل لهم الثناء والمكافأة قيل انه لما قدم زرياب الموسيقي من العراق خرج بنفسه لاستقباله . وتوفي سنة ٢٣٨ ه .

النـاصر ـ ومنهم الناصر فانه كان يحترم العلماء احتراماً عظيماً ولذلك كثر عددهم في زمانه وانتشر العلم بواسطتهم انتشاراً جعل مملكة الاندلس نبراس الممالك .

وبلغت سنو ملك الناصر ٥٠ سنة نال فيها من العز والسؤدد ما لم يتيسر لملك سواه فدانت له الامم المتاخمة لملكه وهابه ملوك اوربا واوفدوا اليه رسلهم بالهدايا التماساً لرضاه فكان يبهرهم بما يرونه في عاصمته من ضخامة الملك وعظمة الخلافة



(منجنيق لرمي النفط)
من آلات الحرب العربية

ولما توفي وجدوا في مذكراته ان ايام سروره لم تزد على ١٤ يوماً في كل مدة ملكه . وفي ذلك دليل على انه كان يبذل راحته في سبيل خير الامة . وهكذا تنهض الامم



بملوكها ورؤسائها اما اذا لم تجد منهم دافعاً ونصيراً فانها تهوي بهم الى حضيض الذل والانحطاط كما وقع للامويين في الاندلس بعد ما استولى على آخر ملوكهم الضعف والاهمال وانتشرت الفوضى في بلادهم .

وكان عبد الرحمن الناصر اول من لقب بامير المؤمنين في الاندلس وقد توفي سنة ٣٥٠

الحكم – وخلفه ابنه الحكم المستنصر فحارب الجلالقة واكرههم على عقد الصلح معه وكان محباً للعلم وأهله . ويقال ان عدد الفهارس التي فيها اسماء كتبه اربعة واربعون فهرساً . وقد توفي بقرطبة سنة ٣٦٦ .

هشام الثاني – وفي عهده اشتهر محمد بن ابي عامر الملقب بالحاجب المنصور فاحرز انتصارات باهرة زادت في نفوذه وأضعفت سلطة الخلافة .

محمد المهدي – خلف هشام وقتل عبد الرحمن الحاجب فحدثت فتنة في البلاد افضت الى قتله وانقراض دولة الامويين في الاندلس

ملوك الطوائف

وكان علي بن حمود حينئذ اميراً على سبته وهو من العلويين فلما رأى ضعف بني أمية عبر البحر الى الاندلس وسار الى قرطبه مطالباً بالملك . فبويع به ولقب بالمتوكل على الله . على ان أيام ملكه كانت قصيرة اذ استعرت نار الفتن في البلاد وتقسمت الى دول صغيرة . فكان في اشبيلية بنو عباد وببطليموس بنو الافطس محمد بن عبد الله وبطليطله بنو اسماعيل بن ذى النون وبسرقسطه بنو هور وبطرطوشه لبيب العامري وبلنسية المنصور المغافري وغيرهم كثيرون من الولاة والحكام الذين استقلوا بما هو في حوزتهم من المدن والمقاطعات . وهؤلاء كانوا يسمون ملوك الطوائف .

وكان هذا التفريق سبباً في طمع الافرنج فيهم فاخذ منهم الفونس السادس ملك قشطالة بلاد طليطلة وكانت بيد القادر بالله بن المأمون بن يحيي ثم جعل يتوغل في بلادهم شيئاً فشيئاً فاستنجدوا بأمير المسلمين وكبير دولة الملثمين يوسف بن تاشفين فاقبل بجنوده وأساطيله لنجدتهم

وحارب الفونس فهزمه وجعل بلاد الاندلس اقليماً تابعاً لدولته .

وكان يوسف اداريًا حازمًا وسياسيًا محنكاً يحترم أهل العلم ويجلهم ويستشيرهم في أمور الدولة وقد توفي سنة ٥٠٠ هـ



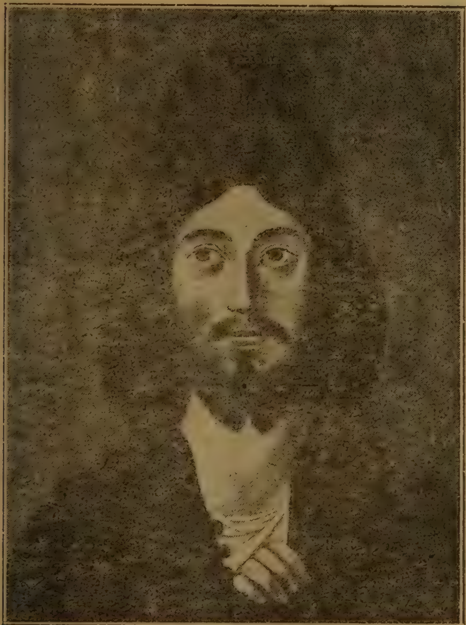
(آلة للهجوم)

« من آلات الحرب العربية »

وقام بعده أخوه علي وكان ضعيف الرأي فاستولى الافرنج في عهدهِ على سرقسطه وغيرها من حصون العرب ومدنهم .

دولة الموحدين

ونشطت دولة جديدة في تلك الاثناء هي دولة الموحدين ورئيسها المهدي بن عبد الله بن تومرت فاغار على



ابو عبد الله آخر ملوك غرناطه
« كما صوره الاسبان »

الاندلس واستولى على كل ما يملكه الملثمون وتمت مبايعته سنة ٥٢٤ هـ وهو الذي بنى جبل طارق الشهير

وجاء بعده ابنه محمد وكان متهتكاً فخلع بعد ٤٥ يوماً من ولايته فخلفه أخوه يوسف بن عبد المؤمن وكان عالي الهمة شريف الصفات عالماً أديباً فنهضت الاندلس في عهده من سباتها واستردت جيوشها مدناً عديدة كان قد احتلها الافرنج وفتحت غيرها واسترجعت شرق الاندلس من اولاد محمد بن مردنيش

ووقعت الحروب الصليبية في تلك الاثناء وكانت سبباً في ضعف دولة الموحدين وقيام دولة أخرى هي دولة بني الاحمر . الا ان الانحطاط ظل سارياً في البلاد واستمر الاجانب على مقاتلة العرب في الاندلس الى ان حصرهم الملك فرديناند في غرناطه سنة ٨٩٦ واستولى عليها بعد حصار سبعة أشهر وكان في ذلك نهاية حكم العرب في الاندلس وانطفأ نور مجدهم الذي سطع في ربوعها مدة سبعة قرون ونصف قرن

الدولة العباسية

(من سنة ١٣٢ الى سنة ٦٥٦)

تولى العباسيون الخلافة اكثر من خمسة قرون وبلغ عدد خلفائهم سبعة وثلاثين خليفة اولهم ابو العباس عبد الله السفاح وآخرهم عبد الله المستعصم بن المستنصر

ففي القرن الاول من حكمهم بلغت الدولة العربية قمة المجد والسؤدد فنبغ فيها اللغويون والمؤرخون والشعراء والفقهاء والمفسرون والمحدثون والفلاسفة والاطباء والفلكيون ولم يكن مثيل لدولتهم في ذلك العهد من حيث العدل في الاحكام والاهتمام بشؤون المملكة وتفاني الحكام في الحرص على رفاهية الشعب وصيانة مصلحة الافراد ونشر العلم والعرفان في البلاد .

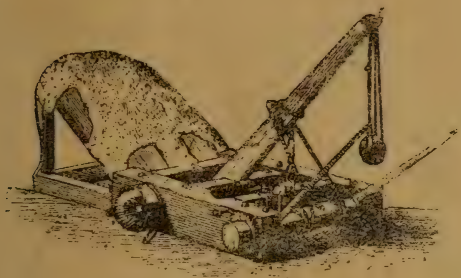
ابو العباس (١٣٢ — ١٣٦) وقد بويع ابو العباس بالخلافة والاضطراب سائد كل بلاد العرب فلم يكن له بد من الشدة في اعادة الامن الى نصابه ولذلك لقب نفسه بالسفاح ارهاباً للناس فقد خطب فيهم قائلاً « استعدوا

فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح » وقد تمكن بسياسته الصارمة من قمع الفتن في مملكته المترامية الاطراف وتوفي سنة ١٣٦ للهجرة

ابو جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨) — وخلفه أخوه أبو جعفر المنصور وكان رجلاً عاقلاً عالماً شاعراً قال ابن الاثير انه كان للمنصور دفاتر علم يحرص عليها كثيراً حتى انه أوصى ابنه المهدي بها حين وفاته . ومن نوادره التي تدل على شغفه بالعلم ورغبته فيه ما جاء في الاغاني من انه لما مات ابنه جعفر قال لوزيره : « انظر من في أهلي ينشدني : (أمن المنون وريبها تتوجع) حتى أتسلى بها عن مصيبتي . فلم يجد الوزير بين بني هاشم من يحسنه فقال المنصور : والله لمصيبتي باهل بيتي ألا يكون فيهم واحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الادب أعظم وأشد عليّ من مصيبتي بابني . ومن آثار المنصور العظيمة مدينة بغداد وقد بناها سنة ١٤٦ وجعلها عاصمة الملك فخفقت أعلام الحضارة فوق ربوعها وارتقت فيها العلوم والصنائع ارتقاء لا مثيل له فقصدها الناس على اختلاف أجناسهم ومواطنهم سعياً الى ما فيها من

أسباب رغد العيش والثروة والحرية والعلم والادب الى ان زاد عدد سكانها على المليونين .

ويرجع الفضل في ذلك الى المنصور الذي رفع مقام العلماء والادباء فيها وبالغ في اكرامهم واحترام آرائهم حتى انه لم يبق عالم أو شاعر الا قصد بغداد رغبة في فائدة



(منجنيق لرمي الحجارة أو النفط)

« من آلات الحرب العربية »

أو طمعاً بمكافئة ولم يقم المنصور بفتح وانما كان دأبه توطيد أركان الملك واصلاح شؤون الدولة والسهر على مصالح الاهلين ونشر العلم في البلاد . ويكفيه فخراً انه كان العامل الاول في تلك النهضة العلمية العجيبة التي أكسبت العرب مجداً لا يمحوه كرور الاعوام

محمد المهدي (١٥٨ — ١٦٩) وخلفه ابنه محمد المهدي فتمم ما كان قد شرع به أبوه من الاصلاحات الداخلية وأجرى الارزاق على المحتاجين وخرج بنفسه غازياً بلاد الروم ففتح جانباً منها ثم توفي سنة ١٩٦



(العرب يستعملون النفط في حروبهم)

موسى الهادي (١٦٩ — ١٧٠) ولي الهادي بعد وفاة أبيه بعهد منه وكان مثله أخلاقاً وهمة ولكنه توفي بعد ملك سنة وثلاثة أشهر فقط

هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣) وخلفه هرون الرشيد فقام بفتوحات كثيرة واستولى على قسم كبير من بلاد الروم وكان مثال الشجاعة وعلو النفس وكرم الاخلاق عادلاً محباً

للعلم ساهراً على مصالح الرعية همه الوقوف على حقيقة أحوال



هارون الرشيد ورسل شارلمان

كل فرد منها وانصافه وهو ممن ضربت بهم الامثال

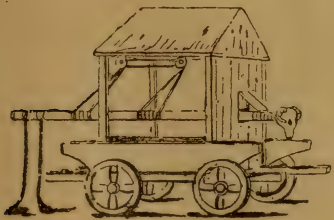
بالحكمة والشجاعة والعدل وحب العلم وقد نقل كثيراً من علوم اليونان والهند والفرس وغيرهم الى اللغة العربية فكان عصره عصراً ذهبياً اشتغل العلماء فيه بضبط اللغة العربية وجمع الفاظها وأخبار الناطقين بها وأنسابهم وأسفارهم ووضع علم العروض والسيرة النبوية والمذاهب الاربعة الباقية الى الآن وأساس العلوم الفلسفية والرياضية وكثير من كتب الادب واللغة ودواوين الشعر مما يعد بالالوف ولكن اكثرها اندثر ولم يبق له أثر

وكان الفرس قد نصروا العباسيين في حروبهم مع الامويين فتقلدوا وظائف كبيرة في الدولة بعد ما كان كل رجال المملكة من العرب في عهد الامويين . وكان الفرس يومئذ في نهضة علمية وكان البرامكة يساعدون أهل العلم ويبذرون الاموال بسخاء استحثاثاً لقرائحهم فكانت لهم بذلك أيادٍ بيضاء في نقل العلوم القديمة الى اللغة العربية على ان دسائسهم السياسية اوغرت صدر هرون الرشيد فأمر بقتلهم ومصادرة أموالهم

محمد الامين (١٩٣ — ١٩٨) وخلفه ابنه الامين فرغب

في ان ينزع ولاية العهد من اخيه المأمون ليولي ابنه موسى مكانه فأدرك المأمون ذلك وأرسل جيشاً لمحاربة أخيه فانتصر عليه وخلعه وبويع بالخلافة محله . وقد قتل الامين في ابان حصار بغداد وكان اول خليفة مقتول من العباسيين

عبد الله المأمون (١٩٨ — ٢١٨) وكان المأمون أفضل بني العباس خلقا واسماهم أدباً واكثرهم اهتماماً بالعلماء والادباء



(رأس كبش)

« آلة لمهاجمة القلاع »

فكان ينفحهم بالهدايا والجوائز وينهال عليهم بالثناء تشجيعاً لهم فراجت في عهده سوق الادب والعلم والتأليف والترجمة وهو اول من قاس الدرجة الارضية

وفتحت في عهده جزيرة صقلية ومدينة بالرمه واجتاحت جيوشه بلاد الروم واحتلت حصوناً كثيرة منها

وكانت ميازيب الثروة تتدفق على المأمون ومنه على رعاياه فكان يكافئ النابغين ويصل الشعراء ويجيز العلماء وكان كريماً جواداً أنفق في حفلة واحدة اربع مئة الف دينار ونصب في مجلسه عند قدوم سفير الروم اليه شجرة من الذهب مزدانة باللؤلؤ على هيئة الثمار ووزع مئتين ورقة على الحاضرين في كل منها اسم مزرعة تخول حاملها امتلاك تلك المزرعة مع مايلزم لها من الخدم . ويقال انه كان في قصره ٤٠ الف بساط منها ١٢ الفاً مزركشة بالذهب

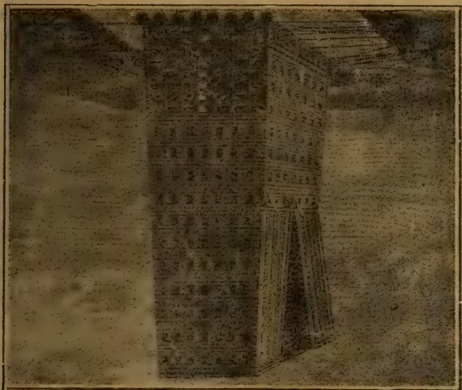
وكان يجول متخفياً ليستطلع أحوال البائسين ويسمع أنة الشاكين فيفرج عنهم ويحسن اليهم وقد أنشأ لجنة تطوف في الاسواق بين حين وآخر فتفحص المواد الغذائية وتتحقق ضبط الموازين والمكاييل التي يستعملها الباعة

ومن مزايا عصر المأمون حرية الكتابة والمجاهرة بالاعتقادات الدينية والعلمية واطلاق الفكر من قيود التقاليد

محمد المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧) وتوفي المأمون سنة ٢١٨ فخلفه محمد المعتصم وكان رجل حرب اكثر منه رجل ادارة فترك شؤون الدولة بيد الاتراك الموالي الذين أكثر منهم

في وظائف الدولة وجند جيشاً كبيراً من شبانهم وبنى لهم مدينة سامرا شمالي بغداد . وكان حشد هذا الجيش من أهم الاسباب التي أدت الى سقوط مملكة العباسيين في ما بعد.

وفي عهده غزا تيوفيل ملك الروم قسماً من بلاد العرب

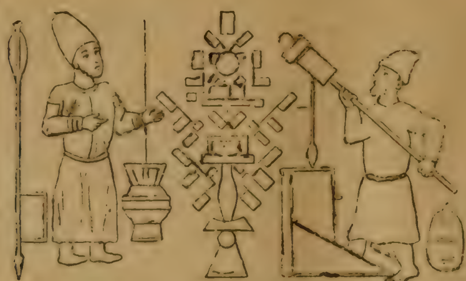


(برج لتسلق الاسوار ومهاجمتها)
« من آلات الحرب العربية »

وسبى النساء والاطفال وقد بلغ المعتصم ان احدى الاسيرات نادت وهي سائرة « وامعتصماه » فقال « لبيك لبيك » وهو في سريره وأمر في الحال بحشد الجيوش ثم أغار على بلاد الروم وفتح معظم حصونها . وقد توفي سنه ٢٢٧

هرون الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢) وخلفه الواثق وكان محسناً وقد فتحت مسينه في عهده ووالاه سكان نابولي .

جعفر المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧) وبويع بعده جعفر المتوكل فتسلط في عهده الاتراك على أمور الدولة واستبدوا بالملك وكان المتوكل يكره الشيعة العلوية وهم من الفرس



(العرب يستخدمون الاسلحة النارية

« عن كتاب خطي قديم في مكتبة بتروغراد »

فقرب الترك منه لينصروه عليهم ولكنهم قتلوه وولوا ابنه المنتصر واستفحل أمر الترك بعد ذلك وزادوا استبداداً وبطشاً وأصبح الخلفاء آلة في أيديهم

محمد المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨) وولي المنتصر الملك سنة واحدة فقط

أحمد المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢) ولاه موالي الاتراك الذين صاروا مصدر القوة في البلاد يولون من شاؤا ويعزلون من شاؤا فساءت الاحكام واضطربت الاحوال فهاجم الروم البلاد وانفصلت بعض الولايات عن الحكومة . وخلع المستعين في سنة ٢٥٢

محمد المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥) وخلفه محمد المعتز وكان قاسياً قليل التدبير فقامت في عهده الدولة الصفارية بسجستان والدولة الطولونية بمصر . وقد خلعه الاتراك سنة ٢٥٥



(أمثلة من النقود المتداولة في عهد العرب)

محمد المهتدي (٢٥٥ — ٢٥٦) وتولى بعده محمد المهتدي ابن الواثق ثم خلع بعد سنة واحدة من ملكه .

أحمد المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩) وفي عهده قامت الدولة السامانية واستفحل أمر الزنج في البصرة واستولى يعقوب ابن الليث الصفار على نيسابور وطبرستان

أحمد المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩) وفي عهده استفحل أمر القرامطة .

علي المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥) وكان شجاعاً ذا سطوة وعزم فانقضى في عهده أمر الدولة الطولونية بمصر وعادت ولاية عباسية تابعة لحكومة بغداد



(الدينار الفارسي)

جعفر المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠) قامت في عهده الدولة العلوية بافريقية وهي الدولة الفاطمية التي ملكت بمصر وقد قتله الاتراك سنة ٣٢٠

محمد القاهر (٣٢٠ ـ ٣٢٢) وتولى بعده أخوه محمد القاهر بن المقتدر ثم خلع بعد سنتين

أحمد الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩) وخلفه أحمد الراضي فاتسع ملك بني بويه في عهده وعظمت شوكتهم وواصلوا فتوحاتهم حتى اقتربوا من بغداد



(الدينار الرومي)

ابراهيم المتقي (٣٢٩ — ٣٣٣) وخلفه ابراهيم المتقي وكان عهده عهد اضطراب وفتن وثورات فأخذت الدولة تتقلص الى ان خلع سنة ٣٣٣

عبد الله المستكفي (٣٣٣ ـ ٣٣٤) وبويع بعده ابن عمه المستكفي بن المكتفي وفي عهده استولى معز الدولة بن بويه على بغداد ولم يبق للخليفة الاّ الاسم

الفضل المطيع بن المقتدر (٣٣٤ ـ ٣٦٣) وفي عهده

ازداد ضعف الخلافة واستولى الروم على طرسوس والمصيصه وملك المعز العلوي مصر

عبد الكريم الطائع (٣٦٣ - ٣٨١) وخلع المطيع فخلفه ابنه الطائع وفي عهده ظهرت الدولة السبكتكينية

وخلع الطائع فولي مكانه القادر بن اسحق بن المقتدر (٣٨٧ - ٤٢٢) وفي عهده ملكت الدولة السبكتكينية خراسان وتوفي فبويع بالخلافة ابنه القائم (٤٢٢ - ٤٦٧) فسادت الفوضى البلاد في أيامه وازداد الخطب تفاقماً فتفرق العرب شيعاً وأحزاباً الى ان استظهر الاجانب عليهم فتضاءلت سلطتهم شيئاً فشيئاً وانكمش ظل ملكهم في بقع صغيرة من الارض بعد ان كانوا قد بسطوا سلطانهم على جزيرة العرب وسورية والعراق ورفعوا أعلامهم من ضفاف الكنج شرقاً الى الاتلانتيك غرباً ومن ضفاف نهر لوار شمالاً الى أواسط أفريقيا جنوباً وأحتلوا جانباً من بلاد الروم وانتشر أريج فتوحاتهم وانتصاراتهم في انحاء الارض شرقاً وغرباً .

ونشأ عن ذلك تفرق العلماء والادباء هرباً من الظلم والاستعباد للاعداء الذين قهروهم وصبوا عليهم جام نقمتهم فخبا بتفرقهم ضياء العلم وأظلم وجه الحضارة وتسرب اليأس الى القلوب

وفي أول القرن الرابع للخلافة العباسية ظهرت الدولة السلجوقية فاقترن طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجوق بابنة الخليفة عبد الله القائم فعظمت بذلك سلطته وتوطدت أركان دولته

وتوفي الخليفة القائم فخلفه عبد الله المقتدي بن محمد بن القائم (٤٦٧ ـ ٤٨٧) وفي عهده استولى الفرنج على جزيرة صقلية

وعقبه أحمد المستظهر (٤٨٧ ـ ٥١٢) وفي عهده اشتدت الحروب الصليبية وملك الافرنج انطاكية ومعرة النعمان و بيت المقدس وجبيل وعكا وطرابلس و بيروت وصيدا .

وتوفي المستظهر فخلفه الفضل المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩) فالمنصور الراشد (٥٢٩ ـ ٥٣٠) فمحمد المقتفي (٥٣٠ ـ ٥٥٥)

وفي عهده انقرضت دولة سبكتكين . فيوسف المستنجد بن المقتفي (٥٥٥ ـ ٥٦٦) وفي عهده انقرضت دولة الفاطميين بمصر وحلت محلها الدولة الايوبية

وعقبه الحسن المستضيء (٥٦٦ ـ ٥٧٥) وفي عهده ظهر صلاح الدين يوسف بن أيوب رأس الدولة الايوبية



(المستعصم)

وخلفه ابنه أحمد الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢) وكان قبيح السيرة ظالماً أطمع التتار في العرب وعاونهم عليهم . ثم محمد الظاهر (٦٢٢ ـ ٦٢٣) ثم المنصور المستنصر بالله (٦٢٣ ـ ٦٤٠) ثم المستعصم بن المستنصر (٦٤٠ ـ ٦٥٦) وهو الذي

كان على يده انتهاء الدولة العباسية وسقوط بغداد بيد هولاكو

* * *

العصر المغولي ـ وهو من سنة ٦٥٦ الى سنة ٩٢٣ أي نحو ثلاثة قرون امتدت سلطة المغول فيها من حدود الهند شرقاً الى حدود سورية غرباً وملك الترك من حدود سورية شرقاً الى حدود مصر غرباً وساد العرب في ما وراء ذلك غرباً الى شواطئ الاتلانتيك وفي اليمن .



(هولاكو)

ثم دخلت مصر والشام في حوذة المماليك وهم أتراك وجراكسة ابتاعهم في أول الامر السلطان الصالح نجم الدين أيوب وقربهم اليه ليكونوا له عوناً على أعدائه فتكاثروا وعظم

شأنهم رويداً رويداً الى ان استلموا زمام السلطة واستأثروا بها وقد ظل الملك في يدهم نحو ١٣٢ سنة

وفي آخر هذا العصر دالت دولة الاندلس وانحصرت سيادة العرب في اليمن والمغرب . وكانت اليمن أمارات صغيرة في زبيد وصنعاء وعدن

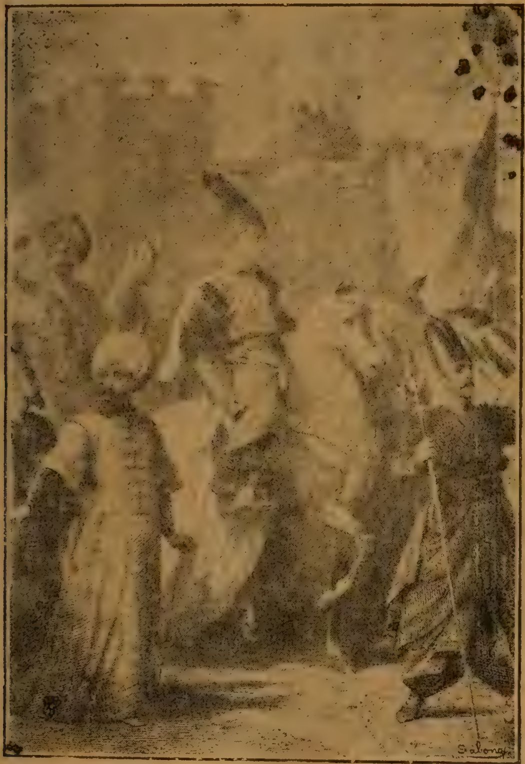
وهكذا مرت ثلاثة قرون وليس للعرب دولة تستحق الذكر ومع ذلك فقد ظلوا محتفظين بقوميتهم ولغتهم وآدابهم وأخلاقهم وعاداتهم ومعظم الفضل في ذلك يعود الى مصر والشام وهما في حوزة الملوك الايوبيين والسلاطين المماليك وكانت عاصمة البلاد مصر القاهرة فاجأ اليها كثيرون من علماء العرب فراراً من وجه المغول والافرنج وانتقلت العلوم بفرارهم من بغداد وبخارى وقرطبه واشبيليه وغيرها الى مصر ودمشق وحلب وحماه

* * *

العصر العثماني — نشأت الدولة العثمانية في آسيا الصغرى في اثناء العصر المغولي ولما قويت شوكتها فيها اجتاح العثمانيون البحر الى اوربا وفتحوا الاستانة سنة ٨٥٧

ودوخوا البلقان وغزوا اوربا ووصلت جيوشهم الى اسوار فينا

ولما اضطربت سياسة مصر وفسدت فيها الاحكام حمل



(السلطان محمد الفاتح)

السلطان سليم عليها ففتحها بعد مافتح الشام وألحقها بالبلاد العثمانية سنة ٩٢٣ وبذلك تنازع العالم الاسلامي ثلاث أمم

الفرس والمغول والترك فالفرس رفعوا اعلامهم على ايران وخراسان وضفاف دجلة في عهد الدولة الصفوية وبسط المغول سلطانهم شرقاً من افغانستان الى اقصى الهند ونشر الترك اعلامهم على مصر والشام والجزائر وتونس وقسم من العراق

ونشط آل عثمان في بدء حكمهم الى زيادة فتوحاتهم وتوسيع نطاق ملكهم حتى سنة ٩٧٤ ثم دخلوا في دور الضعف والانحطاط لسوء معاملتهم الامة وقلة تدبرهم في تنظيم المملكة والجيش

وقد جعلت حكومة الاستانة التفريق اساس سياستها ولا سيما في الولايات فآل ذلك الى فساد الاحكام وزيادة المظالم والمزاحمة في الرشوة تقرباً من الحكام وأفسح للاجانب مجال التداخل في شؤون العثمانيين الداخلية وحمل العناصر المختلفة على المطالبة باستقلالها ففقدت الدولة في القرنين الماضيين بساربيا وهنغاريا وبلاد القرم والقوقاس والبوسنه والهرسك ومصر وطرابلس الغرب والبانيا ومكدونيه واستقلت عنها رومانيا وبلغاريا وسربيا والجبل الاسود واليونان

فانكمش ظل ملكها في بقعة صغيرة في اوربا وفي الاناضول والعراق وسورية . كل ذلك والعرب يرون بأم عينهم بلادهم تتجزأ وخلافتهم تضعف فلا يحركون ساكناً حرصاً على تلك الرابطة السياسية والدينية التي تربطهم بالترك وخوفاً من اطماع الاجانب في بلادهم فجعلوا يعاونون الترك باخلاص ويعضدونهم بما وصلت اليه ايديهم وافكارهم من قوَّة ومواهب راضين من حظهم في حكومتهم بالاحتفاظ بما بقي من عصبيتهم القومية ولغتهم الشريفة ان تتناوله يد الانحطاط والفناء

ذلك كان السبب في صبر العرب قروناً طويلة الى ان وقعت الحرب الاوربية العظمى ورأوا المشانق منصوبة لزعمائهم وأدبائهم وسيف الظلم مسلولاً فوق رقابهم فثار ثائر الغضب في صدورهم وأخذوا يتدبرون في ما يجب عمله دفاعاً عن انفسهم ودراً للخطر الذي يهدد كيانهم . ولحظ الاتحاديون ذلك منهم فشددوا الوطأة عليهم بغية ان توزع قوتهم فلا يبقى ثمة خوف منهم

على ان ذلك زاد العرب قوة وثباتاً في الدفاع عن كيانهم

ورد غارة الايذاء والتعدي عن قوميتهم ولغتهم . وهكذا اذا كانت النفوس كباراً

وقد رفع جلالة الملك الحسين الاول امامهم راية الحرية والاستقلال فجعلوا حولها من مهجهم واكبادهم حصوناً ومعاقل لحمايتها . هذه حالة العرب الآن ولا ريب في ان المؤتمر العظيم الذي يعقب الحرب العظمى سينظر الى ماضيهم المجيد وحاضرهم المملوء بالآمال العظيمة فينيلهم ما استحقوه بتاريخهم الباهر ومدنيتهم الزاهرة ودماء ابطالهم وشهدائهم التي بذلت في سبيل الاستقلال ويمهد لهم السبل لتمدين الشرق والقيام بالمهمة التي ألقتها الانسانية على عاتقهم وقاموا بها خير قيام في ابان ملكهم

تاريخ العرب الحربي

نبذة اجمالية

ويجدر بنا في هذا المقام ان نجمل تاريخ العرب الحربي في القرون الثمانية التي سادت بها حضارتهم العالم

القرن الاول للهجرة ـ وجه الخلفاء الراشدون عنايتهم الى انتزاع سورية من الروم والعراق من الفرس فاحتلوا

سورية كلها في سبعة أعوام ودكوا عرش الفرس في شهرين واستولوا على مصر وما جاورها ووصلوا الى حدود الهند والقوقاس قبل ان ينتهي عصر الراشدين ثم انتقلت الخلافة الى الامويين فجعلوا عاصمة ملكهم دمشق وأرسل معاوية أوّل خلفائهم جيشاً كبيراً الى شمال افريقية فاجتاحها حتى



منجنيق روماني لرمي السهام

« من الاسلحة المستعملة عند العرب »

الاتلانتيك ثم عهد الى ابنه يزيد في الزحف على الاستانة فحصرها سبع سنوات متواصلة بينما كان الاسطول العربي يحتل جزيرة صقلية وسائر جزر البحر المتوسط واحدة تلو الاخرى

وقد ملك الامويون قرناً كاملاً وسعوا فيه حدودهم الى الصين شرقاً والى الاوقيانس الاتلانتيكي غرباً وعبروا مضيق جبل طارق واحتلوا قسماً كبيراً من أسبانيا

القرن الثاني — واجتاح العرب فرنسا في القرن الثاني للهجرة فبلغوا منتهى القوة والمجد وكانت أعلامهم تخفق على أكثر من نصف العالم القديم ثم وجهوا عنايتهم الى العلوم والفنون والصناعة والتجارة ففاقوا بها أمم الارض قاطبة وكان



أمثلة من النقود في عهد المأمون

امبراطور القسطنطينية يدفع لهم الجزية وشرلمان امبراطور الغرب يتودد اليهم ويرسل رسلاً وسفراء الى بغداد .

القرن الثالث — بدأ دور الانحطاط في القرن الثالث فخرجت بلاد الهند والفرس وغيرهما حزو الاندلس في الانفصال عن حكومة بغداد

القرن الرابع — واستمر تقسيم الدولة الى أمارات مستقلة في القرن الرابع وتنازلت بغداد عن مقامها السياسي والادبي لغرناطه وقرطبه والقاهرة

القرن الخامس — وظهر الترك السلجوقيون في

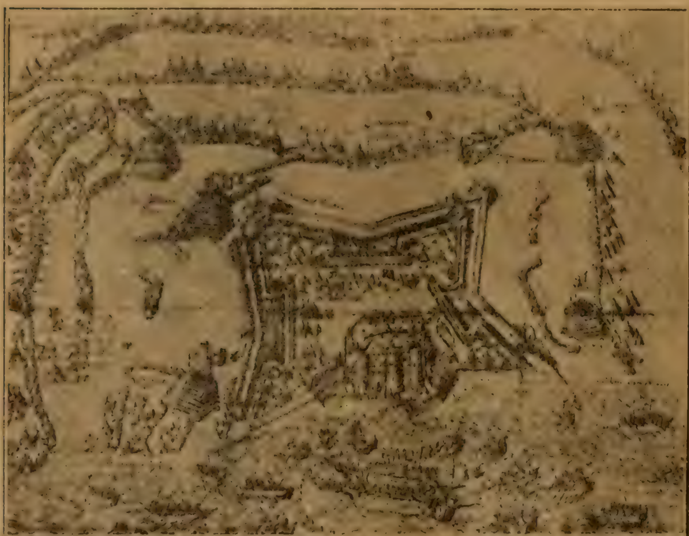


(الصليبيون امام دمياط)

القرن الخامس ووقعت الحرب الصليبية الاولى وأنشأ جودفروى دي بويون مملكة أورشليم وتغلب الافرنج على العرب فطردوهم من صقلية وقسم كبير من أسبانيا

القرن السادس — وقعت في هذا القرن الحرب الصليبيـة الثانية والثالثة واسترجع صـلاح الدين الايوبي بيت المقدس .

القرن السابع — وتوالت الحروب الصليبية في هـذا



حصار من البر والبحر

القرن واحتل الصليبيون الاستانة وأنشأوا فيها مملكة لاتينية واجتاح المغول بقيادة جنكيز خان الصين والعجم والهنـد واحتلوا بغداد فانتـقلت حضارة العرب الى مصر والاندلس

القرن الثامن — امتاز هذا القرن بالنزاع العظيم الذي قام بين الترك والمغول لامتلاك ارث العرب

القرن التاسع ـ قضي على العرب في الاندلس فانطفأ نبراس حضارتهم فيها بعد ما أنار اوربا ثمانية قرون كاملة

القرن العاشر ـ انتهى حكم العرب السياسي في القرن العاشر ولم يبق لهم تأثير في الشرق الاّ بنظاماتهم ولغتهم وآدابهم وأخلاقهم والبقية الباقية من ارث المجد الذي خلفه لهم أجدادهم

صفات العرب وأخلاقهم وعاداتهم

﴿ شيء عنها ﴾

رأينا تتمة لهذا البحث ان نذكر شيئاً عن صفات العرب وأخلاقهم وعاداتهم لما في ذلك من الدلالة على درجة رقيهم وحضارتهم اذ لا يخفى ان اسمى المبادىء الاجتماعية التي تفاخر بها الامم اليوم قد فطر عليها العرب وعملوا بها في كل أدوار حياتهم ولا سيما بعد الاسلام . فالدمقراطية والاشتراكية والمساواة والحرية الشخصية والفروسية بمعناها الحالي واحترام النساء كل ذلك من تعاليم العرب وثمار تمدنهم الباهر . وقد قال الدكتور غستاف لبون ان العرب هم الذين مدنوا أوربا وان الغرب لولاهم لكان الآن في القرون الوسطى . وهذه أعظم شهادة من أعظم فيلسوف في هذا العصر

الدمقراطية في العرب ـ كانت البيعة للملوك وهي العهد على الطاعة معروفة في الجاهلية وقد جرى العرب عليها في الاسلام أيضاً . قال ابن خلدون : كان المبايع يعاهد أميره

على ان يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه في ما يكلفه به .

وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمى بيعة مصدر باع. وصارت المبايعة مصافحة بالايدى ثم استغني عن المصافحة الآ مع الخواص اجتناباً للتعب وابتذال المنصب الملكي .

ولا يخفى ان المبايعة بالملك على ما بينا أشبه شيء بالاحكام الجمهورية التي يسير عليها الآن أرقى شعوب الارض وان في اجماع كلمة الامة على بيع حق تملكه أنصع برهان على ان الشعب كان دمقراطياً حراً يبايع من يرى فيه الكفاءة ويعزل من يرى فيه عدم اللياقة .

الاشتراكية ـ ليس في العالم أمة غير العرب قامت على أسمى المبادئ الاشتراكية وجرت عليها في كل أدوار حياتها ولا غرو في ذلك فان الشرع الشريف أمر بها والعرب فطروا عليها منذ ظهورهم في العالم . قالت الخرنق اخت طرفة بن العبد

والخالطون لجينهم بنضارهم   وذوي الغنى منهم بذى الفقر

المساواة ـ ومبدأ المساواة من المبادىء التي قدسها العرب أيضاً فالقضاء لم يكن يعرف عندهم كبيراً أو صغيراً غنياً أو فقيراً . وفي قصة جبلة بن الايهم آخر ملوك غسان التي ذكرناها في غير هذا المكان اكبر دليل على ذلك . ولم تقتصر المساواة على القضاء فقط بل تعدتها الى سائر معاملات العرب . قيل ان هرون الرشيد ذهب يوماً مع ولديه الامين والمأمون لسماع دروس الامام مالك فاجلسهم الامام مع سائر الطلبة قائلاً العلم لا يفرق بين الكبير والصغير . وقد جاء في الحديث الشريف «الناس سواسية كأسنان المشط»

الحرية والتساهل ـ وقد امتاز العرب بعظم تساهلهم وشدة تمسكهم باهداب الحرية وأكبر دليل على ذلك حسن معاملتهم لغير المسلمين وجرأتهم على انتقاد أعمال الخلفاء والامراء والمجاهرة بآرائهم السياسية والدينية مهما يكن أمرها فأقوال فلاسفتهم وشعرائهم كابن رشد والمعري لو نشرت في هذا القرن لاقامت رجال الدين وأقعدتهم فكيف بها في القرون الوسطى .

الفروسية ـ قال الدكتور غستاف لبون : ان صفات الفروسية التي اثرت في أوربا تأثيراً أعظم من تأثير الاديان والتي كان أساسها احترام الضعيف والبر بالوعد والرأفة بالمغلوب وغير ذلك من الفضائل النفسية أخذها الافرنج عن العرب في أسبانيا واستشهد على ذلك بحوادث تاريخية منها ان والي قرطبة خرج بجيشه سنة ١١٣٩ ميلادية لمحاربة الافرنج وحاصر مدينة طليطله وكانت الملكة «برانجر» فيها فأرسلت اليه تقول انه لا يليق بفارس شريف النفس كريم الخلق ان يهاجم امرأة في منزلها . فلما سمع القائد هذا الكلام أمر برفع الحصار في الحال وكلف الرسول ان يقدم احترامه الى الملكة ويعتذر لها عما جرى .

وقارن الدكتور غستاف لبون بين هذا القائد العربي وأعظم رجل اشتهر بالفروسية من الافرنج في ذلك الحين وهو الدون رودريك الملقب «بالسيد» بطل الرواية المشهورة التي وضعها كورنيل فقال ان دون رودريك هذا لم يحجم عن اغتيال عجوز مثرٍ لسلب نقوده . وهو عمل لم يكن يخطر على بال عربي في ذلك الحين .

وقد قال العلامة سديو في هذا الشأن ان تفوّق العرب على الافرنج كان عظيماً جداً من الوجهة الادبية والعلمية والصناعية وانهم امتازوا على جميع معاصريهم بسمو مبادئهم وحسن أخلاقهم ونبل عواطفهم واخلاصهم للصديق وعطفهم على الغريب .

احترام النساء — وكما ان الافرنج أخذوا الفروسية عن العرب كذلك أخذوا عنهم احترام النساء فبينما كانت المرأة في أرفع منزلة في الشرق والاندلس كان الافرنج يعاملونها في بلادهم معاملة احتقار وقسوة واستبداد . وقصة شرلمان مع شقيقته أكبر دليل على ذلك .وقدكان اليونانيون في أيام مجدهم يعدون المرأة كمتاع وكذلك الرومانيون وجميع الامم القديمة كما يتضح من شرائعهم وأمثالهم فقد جاء في الشرائع الهندية « ان الموت والسم والافاعي أقل شراً من المرأة » وقالت التوراة « ان المرأة اشد مرارة من الموت » وورد في امثال جميع الامم القديمة والحديثة شيء كثير من ذلك كقول الصينيين «اصغ للمرأة ولا تصدقها» وقول الروس « في كل عشر نساء نفس واحدة » وقول الاسبانيين « احذر المرأة

الشريرة ولا تشق بالمرأة الصالحة » وقول الايطاليين « كما ان المهماز يستعمل للفرس سواء كانت أصيلة أو غير اصيلة كذلك يجب ان تستعمل العصا لادارة المرأة الصالحة والشريرة على السواء »

اما عند العرب فقد كان للمرأة من الحقوق ما لنساء الغرب اليوم وكان عليها واجبات اساسية في نهضة الامة احسنت القيام بها فبلغ العرب ما بلغوه من الحضارة والسؤدد والمجد . وقد اجمع المؤرخون على ان العرب هم أول من رفع شأن المرأة في العالم

وليس قانون الميراث دليلاً على عدم المساواة بين المرأة والرجل عند العرب كما يتوهم فريق من الناس لان الغاية الوحيدة منه ابقاء الثروة في الاسرة . وذلك ما يفعله اشراف الانكليز اليوم ويغبطهم العالم عليه فان البكر هو الذي يرث عندهم اللقب والتركة كلها مع ما في ذلك من الاجحاف بحقوق الآخرين .

الشجاعة — ومن أجمل صفات العرب الشجاعة فقد كانت صفة لازمة لكل عربي. ومن عرف بالجبن سقطت

منزلته في نظر قومه وتبرأ منه ذووه اما الشجاع فكانت تضرب الامثال بفعاله . وكان العرب يتفاخرون بالموت في حومة الوغى ويهجون من يموت على فراشه فيقولون : مات حتف أنفهِ . قال عمر بن سناس

لسنا نموت على مضاجعنا بالليل بل أدواؤنا القتل

وقال السموأل

وما مات منا سيدٌ حتف أنفهِ

ولا ظل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظبات نفوسنا

وليست على غير الظبات تسيل

الكرم — واشتهر العرب بالجود والسخاء فكانت لهم نار تسمى نار القرى توقد ليستدل بها الاعراب ويأتونهم ضيوفاً وكانوا يوقدونها في اماكن مرتفعة لتكون أشهر والمؤسرون منهم يوقدون النار معطرة بالمندلي الرطب وهو عطر ذو رائحة قوية يحرق ليهتدي به العمي . وكانوا يعوّدون كلابهم النباح ليلاً ليهتدي بها من يفوته مرأى النار ورائحة

بخورها . قال حاتم طي :

اذا ماصنعت الزاد فالتمسي   أكيلاً فاني لست آكله وحدي

واني لعبد الضيف مادام ثاويا   وما في الا تلك من شيمة العبد

وممن اشتهر عندهم بالجود والسخاء حاتم الطائي وكعب ابن مامة الايادي ّ وأوس بن حارثة وهرم بن سنان وقتاده بن مسلمه وقيس بن سعد ومعن بن زائدة وغيرهم .

الحلم — وبقدر ما كان يستفزهم الغضب كان يتملكهم الحلم عند المقدرة قال بعضهم

ألا ان حلم المرء أكرم نسبة   يسمى بها عند الفخار حليم

وقال آخر

لا يفطنون لعيب جارهم   وهم لحفظ جوارهم فطن

وقال حاتم طي :

سمعت بعيبه فصفحت عنه   محافظة على شرفي وديني

والذين اشتهروا بالحلم كثيرون منهم معاوية بن ابي سفيان كان يضرب به المثل ونوادره اكثر من ان تحصى . ومنهم الاحنف بن قيس واسمه الضحاك من بني تميم وكنيته ابو بحر كان سيداً مشهوراً بعقله وحلمه . يحكى انه خلا به رجل

فسبه سبا قبيحاً فقال له الاحنف : ان كان بقي من قولك فضلة فقل الآن قبل ان يأتي احد من قومي فيسمعها فتوذى.

الحياء — ومن خلالهم الحياء قال بعضهم

واغض طرفي ان بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها

وقال حاتم طي :

وما تشتكيني جارتي غير انها
اذا غاب عنها بعلها لا ازورها
سيبلغها خيري ويرجع بعلها
اليها ولم تسبل علي ستورها

وهذا غاية ما يبلغه الانسان من الحياء والعفة والمروءة

القناعة ـ واتصف العرب بالقناعة مع ما كانوا عليه من كبر النفس والطموح الى العلا وقد قال شاعرهم في ذلك

والنفس راغبة اذا رغبتها واذا ترد الى قليل تقنع

وقال آخر

وما أنا بالساعي بفضل زمامها
لتشرب ماء الحوض قبل الركائب

وما أنا بالطاوي حقيبة رحلها
لأبعثها خفاً وأترك صاحبي

المروءة ـ وكانت شجاعتهم مقرونة بالمروءة حدثوا عن دريد بن الصمة انه خرج ذات يوم ومعه عدد من رجاله فرأى ربيعة بن مكدم يقود ظعينته فبعث اليه وهو لا يعرفه فارساً يقول له : خلّ الظعينة وانج بنفسك فحمل على الفارس وصرعه وأخذ فرسه فأرسل اليه دريد فارساً آخر ففعل به مافعله بالاول فبعث اليه بثالث فصرعه أيضاً فلما استبطأهم دريد أتى بنفسه ليرى ما الخبر وقد ظن ان رجاله أخذوا الظعينة وقتلوا الفارس ولكنه رآهم قتلى ورأى ربيعة أعزل وقد انكسر رمحه فقال له : أيها الفارس ان مثلك لا يقتل واني لا أرى معك رمحاً والخيل ثائرة بأصحابها فدونك هذا الرمح . ثم عاد دريد الى أصحابه قائلاً ان فارس الظعينة قد حماها.وقتل فرسانكم وانتزع رمحي ولا مطمع لكم فيه فانصرفوا فذهب القوم وقال دريد

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله   حامي الظعينة فارساً لم يقتل

الصراحة ـ ومن خصالهم الصراحة وعدم الرياء قال

شاعرهم المثقب العبدي

فاما ان تكون اخي بصدق
فاعرف منك غثي من سميني
والا فاطّرحني واتخذني
عدواً اتقيك وتتقيني

وقال عدي بن زيد وهو من شعراء الحيرة

وبالعدل فانطق ان نطقت ولا تجر
وذا الذم فاذممه وذا الحمد فاحمد

الاخلاص — ومن شيمهم الاخلاص . قال عنترة

احب بني عبس وان هدروا دمي
محبة عبد صادق الود صابر
وادنو اذا ما ابعدوني والتقي
رماح العدى عنهم وحر الهواجر

الجلد في الشدائد — ومن صفاتهم عزة النفس والجلد في الشدائد قال المثقب العبدي :

فلو اني تعاندني شمالي　لما اتبعتها ابداً يميني
اذاً لقطعتها ولقلت بيني　كذلك اجتوي من يجتويني

وقال آخر:

فان تكن الايام فينا تبدلت

ببؤس ونعمى والحوادث تفعل

فما لينّت منا قناةً صليبة

ولا ذللتنا للتي ليس تجمل

وقال غيره:

فلا انا يأتيني طريف بفرجة

ولا انا مما احدث الدهر جازع

انجزع مما احدث الدهر بالفتى

واي كريم لم تصبه النوائب

الصدق - ومن خصالهم الصدق وكره النميمة فكانوا يمقتون الكذب ويعيرون الكاذب ومن ذلك قول بعضهم

والصدق يألفه الكريم المرتجى

والكذب يألفه الدنيء الاخيب

وقال آخر

تنح عن النميمة واجتنبها   فان النم يحبط كل أجر

يثير أخو النميمة كل شرٍّ   ويكشف للخلائق كل سرّ

ويقتل نفسه وسواه ظلماً   وليس الظلم من أفعال حرّ

الامانة – ومن شيم العرب الامانة والوفاء فهم يحافظون على العهد ولو كلفهم ذلك بذل النفس والنفيس فان السموءل سلم ابنه وفلذة كبده ولم يسلم الدروع التي اؤتمن عليها . وقد قال شاعرهم

واذا الامانة قسمت في معشر   أوفى بأوفر حظنا قسامها

ومثل ذلك احتفاظهم بحق الجوار وحمى الذمار ولو كان من يحمونه ألد عدوّ لهم فانه متى لجأ اليهم أجاروه وعملوا على رفع ظلامته

وعلى الجملة فقد اجتمع في العرب من مكارم الاخلاق وحميد الصفات وجميل العادات ما لم يجتمع في أمة أخرى . فهم ذوو اباء وحلم وحياء وعزة وسماحة وسخاء ومروءة وصدق ووفاء . وقد وصفهم الحارث بن كلدة لما قدم على كسرى فقال « لهم أنفس سخية وقلوب جرية وعقول صحيحة مرضية وأحساب نقية يمرق الكلام من افواههم مروق السهم من الرمية . ألين من الهواء واعذب من الماء يطعمون الطعام ويضربون الهام وعزهم لا يرام وجارهم لا يضام ولا يروع اذا نام »

ملابس العرب وعاداتهم

لم تتغير ازياء العرب في زمن من الازمان بل كانت دائماً بسيطة الصنع طويلة الاذيال يتمنطقون فوقها بمنطقة من الجلد يضعون فيها خنجراً ونحوه من انواع السلاح ويغطون رؤوسهم بكوافي وهي قطع من نسيج مربعة يلفون عليها حول رؤوسهم عصائب من غزل الصوف المبروم يسمونها عقالات واحدها عقال ومنهم من يلبس طاقية وفوقها عمامة

وكان رجال البادية يلبسون العباءات المنسوجة من شعور المعز والابل . والعباءات جمع عباءة وهي كساء من صوف بلا اكمام او هي نسيج مربع مطبق ومشقوق من الوسط وله فتحتان يخرج منهما الذراعان والنساء الفقراء يلبسن قميصاً وسربالاً والسربال قميص طويل الاذيال . اما حديثات السن فكن يضعن على رؤوسهن خماراً ويلبسن بُرُداً وهي نسيج يلف الجسم من غير جيب ولا اكمام

وكان من عادة النساء في الجاهلية ان يتطيبن ولكل منهن قفة من خوص تجمع فيها اداة الطيب لاتفارقها مطلقاً

فاذا رحلت من مكان الى آخر نقلتها معها. وكذلك الحضريات ورجالهن ولا سيما بعد الاسلام فان الطيب كان من اعظم ما تصبو اليه نفوسهم وتنصرف اليه عنايتهم

ولما كان من خلق العرب الميل الى التفرد والاستقلال كانوا يفضلون التفرد في بعض الملابس فكان سعيد بن العاص بمكة اذا وضع على رأسه عمامة لا يسمح لاحد ان يعتم بمثلها ما دامت على رأسه . وكذلك كان الحجاج بن يوسف اذا اعتم بعمامة لم يجترئ احد ان يدخل عليه بمثلها . وكان عبد الملك بن مروان اذا لبس الخف الاصفر لم يلبس احد مثله حتى ينزعه

وقد جرى العرب على عادة التختم باليمين غير ان النقش على الخواتم لم يكن مستعملاً في الجاهلية واول من اتخذه في الاسلام صاحب الشريعة الاسلامية وذلك انه لما اراد ان يكتب كتاباً الى ملك فارس قيل له ان الفرس لا يقبلون كتاباً غير مختوم . فاتخذ خاتماً من الفضة وكتب عليه : محمد رسول الله . وانتشرت بعد ذلك عادة التختم حتى اصبحت من علامات الملك وشاراته في الدول العربية. قال ابن خلدون

انهم كانوا يستجيدون صوغه من الذهب ويرصعونه بفصوص من الياقوت والفيروز ويلبسه السلطان شارة كما ن البردة والعصا كانت شارة الملك في الدولة العباسية والمظلة في الدولة العبيدية وكانت الخلفاء تتختم باليمين فخالفهم في ذلك معاوية ابن ابي سفيان وتختم في اليسار ثم نقله السفاح الى اليمين حيث بقي الى ايام الرشيد فنقله الى اليسار وتبعه الناس في ذلك

وكانت نساء العرب تتزين بالخواتم كالرجال ويلبسن في سواعدهن اساور ويتقلدن بالعقود ويضعن في آذانهن الاقراط الثمينة ويعقصن شعورهن بعد كيها وتضميخها بالعطور

ولا يخفى ان ملوك العرب في الجاهلية كانوا يضعون على رؤوسهم تيجاناً وأول من تتوَّج منهم حمير بن سبا وكانت الملوك من بعده يضعون في تيجانهم خرزاً فكان الملك يزيد في كل سنة خرزة ليعلم عدد سني ملكه . واما الخلفاء في الاسلام من بني امية وبني العباس فكانوا في احتفالاتهم التشريفية يجلسون على عرش ويضعون العمامة على رؤوسهم

وبردة صاحب الشريعة الاسلامية على اكتافهم وبين ايديهم عصا الملك فكانت العمامة لهم موضع التاج . واول من اتخذ سرير الملك مجلساً معاوية وتبعه في ذلك الملوك من بعده

وكانوا يفيضون سبع خلع على من ارادوا تشريفهم بولاية ويلبسونهم طوقاً وتاجاً وسوارين ويقلدونهم سيفين ويأمرون باقامة الخطبة لهم . والخلعة هي الثوب يخلعه الخليفة عنه ليشرف من اراد يلبسه

آداب الاكل عند العرب

كان العرب في الجاهلية وفي صدر الاسلام لا يعنون بغسل ايديهم الا قبل الطعام وكانوا يغسلونها بالماء اما بعد ذلك فكان اهل الحضر يغسلونها بالصابون قبل الاكل وبعده . وكانوا يأكلون على خوان ويسمون خدام المائدة النذل ويسمون الطباخ الطاهي

وجرت العادة عند العرب اهل الخيام باكرام الضيوف والتشديد عليهم بمناولة الطعام

واشتهر بنو غسان في زمن الجاهلية باكرام الضيوف

وضرب بهم المثل فيقال اقرى للضيف من بني غسان

وكان من آدابهم ان يخدم المضيف ضيوفه وان يبدي لهم السرور وطلاقة الوجه وفي ذلك يقولون : اتمام الضيافة الطلاقة عند اول وهلة واطالة الحديث عند المواكلة

وعندهم انه يجب على المضيف ان يحدّث اضيافه بما تميل اليه نفوسهم ولا ينام قبلهم ولا يشكو الزمان بحضرتهم . وعليه ان يتفقد دوابهم بنفسه ويأمر غلمانه بحفظ نعالهم وتفقد غلمانهم وان يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام [١] وان يؤانسهم بالحديث في اثناء الأكل وان يشيعهم الى باب الدار وقت انصرافهم

اما مايجب على الضيوف حينئذ فهو ان يأكلوا مما يقدّم لهم من الطعام . ولا يسألوا صاحب الدار عن شيء في داره سوى القبلة لاجل الصلاة وموضع قضاء الحاجة وان لا يمتنعوا عن غسل ايديهم ولا يمنعوا صاحب البيت عن عمل شيء من

---

(١) كانت العادة عند العرب ان يجعلوا حاجباً على بابهم فلا يسمح لاحد بالدخول الاّ بعد ما يعرف الحاجب اسمه ليستأذن له صاحب الدار كما هي العادة اليوم

اجل اكرامهم وراحتهم . وقد عابوا جداً الضيف المهذار وكثير الفضول . وكانوا يسمحون للرجل بان يدخل بيت صديقه ويأكل في اثناء غيابه وكانوا يكثرون من انشاء الملاجئ والسبل للغرباء والمحتاجين

ومما نهوا عنه الاكل في السوق لانه دناءة . والاكل والشرب وقوفاً وكذلك نهوا عن النفخ في الطعام والشراب . وعن اكل الطعام حارًّا . وعابوا من يتبع ببصره لقمة اخيه . ونهوا عن كثرة الاكل . واوجبوا الاكل والشرب باليد اليمنى وضم الشفتين عند الاكل . وعدم التلفت يميناً وشمالاً وعدم التقام الطعام بسكين والاحتراس من البصق في الاماكن النظيفة ومن عاداتهم ان يبكروا في الغداء ويتاخروا في العشاء انتظاراً لمن قد يحضر من الضيوف

ومما نهوا عنه ابداء العيب في الطعام فان اشتهاه الضيف اكله والاّ تركه . ولكنهم اباحوا المهازلة عليه

ولا يسعنا ان نعدد حسنات العرب لانها تملأ مجلدات ولكننا اقتصرنا على ذكر القليل منها وهو يدل على انهم بلغوا من الآداب مبلغاً لم يدع حاجة للاوربيين ان يزيدوا عليه

مع كل ما توالى عليهم من السنين وما بلغوه من الحضارة وما احرزوه من العلوم

المرأة عند العرب

قال لامارتين « اذا شئت ان تختبر أحوال أمــة من الامم أدبياً وسياسياً فابحث عن حالة النساء فيها » وهو قول حق لا ريب فيـه لانه نتيجة اختبارات البشر منذ الخليقة الى اليوم لذلك لم نر بدًّا في هـذا المقام من الاشارة الى ما كانت عليـه المرأة في عهد العرب والادوار المختلفة التي مرت بها والتأثير العظيم الذي كان لها في حياتهم القومية لما في ذلك من الدلالة على حضارتهم ودرجة رقيهم

كانت النساء في الجاهلية على درجة رفيعة من الرقي وكانت لهن حرية ورأي محترم وكن يخيرن في الزواج . جاء في الاغاني ان الرجل لم يكن يزوّج ابنته الا بعد ان يشاورها وقد نبغت كثيرات منهن في السياسة والتجارة والصناعة والادب واشتهرت كثيرات بمناقب جميلة وأعمال عظيمة الشان وكفى بذكر بلقيس وزينوبيا والخنساء دليلاً على ذلك

وكانت النساء تصحب الرّجال الى ساحات القتال فيداوين الجرحى - كما تفعل نساء الغرب اليوم - وينقلن الماء ويساعدن اخواتهن وأزواجهن في الدفاع عن المعاقل والقلاع ومهاجمة العدو ويبثثن فيهم روح الحمية بما يلقينه من الخطب والاشعار الحماسية . وبلغ من استقلالهن انه كان لهن الحرية المطلقة في المتاجرة بأموالهن والتصرف بها بلا قيد ولا معارضة وفي معاطاة الاعمال العقلية والصناعية على أنواعها . فقد كانت السيدة خديجة تتاجر باموالها على يد رجال أمناء تنتقيهم فلما سمعت بشهرة النبي (صلعم) عرضت عليه ان يخرج بمالها تاجراً الى الشام ففعل وقد تزوجته وكانت له خير عضد وأكبر معين

وكان للمرأة شأن عظيم وكلمة نافذة في امور قومها فكم استعرت حرب وأبرم صلح برأيها ومشورتها وهذه حرب بكر وتغلب أضرمتها امرأة ببيت من الشعر . قالت لرجال عشيرتها :

فلو أننا كنا رجالاً وكنتم نساءً لكنا لا نقيم على الذل

وقد أصلحت زوجة الحرث بن عوف سيد بني مرة بين

قبيلتي عبس وذبيان بعد ما كادتا تفنيان

وازدادت المرأة نشاطاً في صدر الاسلام واشتهرت كثيرات بالعلم والادب والسياسة وسداد الرأي . وكن يختلطن بالرجال ويقابلن الزوار ويعقدن مجالس الانس فيجتمع لديهن كل من نبغ في الادب والشعر والسياسة وهذا المجتمع أشبه شيء بما يسميه الافرنج اليوم « Salon »



امرأة عربية تمرض جرحى الحرب

وقد انصرفت كثيرات الى العلم والادب ففقن الرجال قيل لجرير : من أشعر الناس . قال : أنا لولا هـذه الخبيثة (يعني الخنساء) ويحكى ان الخليفة الحاكم أجرى مرتباً لحسانة

النميرية يغنيها عن الناس ويكفل استمرارها في خدمة العلم

وخلاصة القول ان الامة العربيـة لما كانت في اوج مجدها قابضة على السيف والقلم وكان لها فيهما القدح المعلى كانت نساؤها مثل رجالها علماً وحزماً وهمةً واقداماً

وقد ظلت الحال على هذا المنوال الى ان عظمت سلطة الدخلاء الذين جاءوا الامة بكل ما يضعف عزائمها ويفسد أخلاقها فمحوا بمفاسدهم صورة المرأة العربيـة الحرة الشمائل الابية النفس وأقاموا مقامها صورة النساء المترفهات اللواتي اقتدين بنساء الروم والفرس في الترف واللهو والكسل . فكان ذلك بدء انحطاط العرب وزوال ملكهم

الفصل الثالث

العلوم عند العرب

كان العرب في القرون الوسطى ممثلي حضارة الامم وناشري لواء العلم في الكون. كبحوا جماح الجهل الذي ضرب اطنابه في اوربا اثر غزوات امم الشمال واحتفظوا بارث اليونان والفرس العلمي وزادوا عليه من اوضاعهم مبتكرات كثيرة وقطعوا مراحل جديدة في درس الطبيعة (١) وامتازوا بجميع الصفات التي تؤهلهم الى السير في مقدمة الامم فتفردوا بنشاط عجيب وتساهل غريب وميل طبيعي الى الحرية والحضارة والعمران وكانوا يأتون البلاد المحتلة بلغة بديعة وعلوم راقية ومباد سامية وخيال واسع وعدل تام (٢)

وكان العرب في آخر عصر الجاهلية قد تداعى ملكهم وتشتت شملهم فلما جاء الاسلام ضم شتاتهم وجمع كلمتهم فانصرفت عزائمهم الى توسيع ملكهم وما زال امرهم ذلك الى

---

(١) العلامة سديو (٢) العلامة همبولد

ان فازوا بامانيهم من الفتوح والانتصارات فوجهوا عنايتهم حينئذ الى العلوم والفنون وقد ساعدهم على ذلك ماراوه في البلاد التي افتتحوها من آثار الحضارة والعرفان وما بذلوه من العناية بشؤون العلماء ولا سيما النسطوريين الذين التجأوا اليهم بسبب الاضطهادات الدينية في مملكة الروم

واول ما توجهت اليه عناية العرب بعد الاسلام كان وضع قواعد اللغة العربية ومعرفة احكام الشريعة الاسلامية وذلك صونا للغة وعقائد الدين من تطرق الفساد اليها وكان الطب معروفاً عند افراد منهم قبل الاسلام ولكنه ارتقى بعد ذلك لحاجة الناس طراً اليه .

وقد بدأت النهضة العلمية في عهد الخلفاء الراشدين ولكن ثمارها لم تنضج الا في عصر الامويين

ولما انتقل الملك الى بني العباس ابتسمت رياض العلوم وتفتحت اكمام الافكار عن ثمار نهضة عظيمة كان العامل الاول فيها الخليفة الثاني ابو جعفر المنصور وكان بارعاً باللغة كلفاً بالفلسفة وعلم الهيئة فامر طبيبه جرجيس بن بختيشوع فعرب له كتباً عديدة في الطب استخرجها عن الفارسية

وعرب محمد بن ابراهيم الفزاري كتاباً من تأليف الهند في صناعة التنجيم يسمى السندهند اي الدهر الداهر وامر عبد الله بن المقفع المشهور معرب كليلة ودمنة فعرّب له كتباً في المنطق عن اليونان ثم تتابع الخلفاء على ذلك من بعده واشهرهم الرشيد والمأمون . وكان الرشيد لما فتح انقره وجد فيها كثيراً من المصنفات العلمية فامر بنقلها الى بغداد ثم بتعريبها وتدريسها واهتم بنشر العلوم اهتماماً عظيماً حتى انه كان يبني الى جانب كل جامع مدرسة . ومما يدل على عظم احترامه للعلم انه طلب مرة من الامام مالك ان يأتي اليه ليقرأ عليه وعلى ولديه الامين والمأمون كتابه الموطأ فبعث اليه الامام يقول: العلم لا يأتي ياامير المؤمنين وانما يؤتى اليه .

وقام بعده ابنه المأمون فاقبل على طلب العلم في مواضعه واستخراجه من معادنه فداخل ملوك الروم وسألهم اتحافه بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا بها اليه واتى بمهرة التراجمة فترجموها ثم نشرها بين الناس وحرضهم على قراءتها ورغبهم في تعلمها .

ولم يمض طويل زمن حتى حفلت بغداد ونواحيها

بالعلماء والادباء والمصنفين وامتلأت خزاينها بالكتب المفيدة والتآليف النفيسة فقامت دولة الحكمة والعلم في الشرق وخفقت اعلامها في اربعة اقطار العالم القديم .

ولم تكن الحال في المغرب اقل منها في المشرق وقد كان العامل الاول في نشر العلوم في مملكة الاندلس عبد الرحمن الاموي الملقب بالناصر فجعل مدينة قرطبة وهي كرسي الملك داراً للعلم واتى اليها بالمصنفات العامية والادبية من جميع الانحاء وانشأ فيها مكتبة عظيمة كانت تحتوى على أربع مئة الف مجلد على ما ذكر ابن خلدون والمقري . ويقال انه كان في الاندلس سبعون مكتبة على هذا الشكل في اوائل القرن الخامس للهجرة .

لغة العرب وآدابها

اللغة مقياس حضارة الامة وميزان رقيها وأجمل مظاهر عظمتها . ومن ينظر الى لغة العرب في الجاهلية يدرك في الحال انهذه الامة من أعرق الامم في المدنية لان ألفاظها وأساليبها ومعانيها وتراكيبها بلغت منتهى الجودة والرقة

والمتانة وكفى بما نقرأه من الاشعار والامثال والحكم والخطب شاهداً على بلوغ العرب منتهى الكمال والابداع

واللغة العربية هي احدى اللغات السامية التي كان يتفاهم بها أبناء سام والمراد باللغات السامية العربية والسريانية والعبرانيـة والفينيقية والبابلية والاشورية والحبشية وقد باد معظم هذه اللغات ولم يبق منها الا العربية والعبرانية والحبشية والسريانية

وقد مرت اللغة العربية في أدوار كثيرة كغيرها من اللغات فتغيرت الفاظها بما طرأ عليها من النحت والقلب والابدال وما داخلها من لغات الاعاجم بسبب الفتوحات واختلاط العرب بغيرهم من الامم

ولم يتمكن المؤرخون من بيان حال اللغة العربية في جميع الادوار التي مرت بها قبل الاسلام لعدم وجود أمثلة مدونة يرجع اليها ويقاس عليها على انه مهما يكن من اللغة العربية وغموض تاريخها القديم فقد عرفناها عند ظهور الاسلام ناضجة بالغـة منتهى الفصاحة والبلاغة في الفاظها ومعانيها. فهي من أغنى لغات العالم وقد وضع فيها لكل مسمى أسماء

عديدة وجعل لكل فعل فروع ومشتقات كثيرة ومما تمتاز به مزيدات الافعال فان صيغ المشاركة التي تأتي على وزن تفاعل كقولنا تناظروا وتفاهموا لا اثر لها في غيرها من اللغات

ومن مزاياها ان لالفاظها تأثيراً كتأثير الموسيقى يحرك العواطف ويلعب بالالباب سواء كان الكلام نثراً او نظماً وذلك مالا نراه في غيرها من اللغات

وتجري الامثال على ألسنة العرب مجرى الشعر وهي عظات بالغة تدل على اختبارهم الطويل قال ابو عبيد : الامثال من حكمة العرب في الجاهلية والاسلام ولها ثلاث خلال ايجاز اللفظ واجادة المعنى وحسن التشبيه

وقد عني العرب بجمع الامثال لحاجتهم اليها في تحقيق الالفاظ على ان معظم ما جمعوه منها قد فقد واهم الكتب الباقية كتاب المستقصى للزمخشري ومجمع الامثال للميداني . وفي مجمع الامثال نخبة ما احتوته كتب المتقدمين وهي تقع في نحو خمسين كتاباً مرتبة على حروف المعجم

وامتازت اللغة العربية بالسجع وهو على انواع مختلفة وكلها يدل على تفوقها على غيرها من اللغات

علم النحو — اختلط العرب بالاجانب بعد الفتح فصار النشوء الجديد يسمع في التعبير عن المقاصد كيفيات أخرى غير ما كانت تعبر به العرب ثم يسمع أيضاً كيفيات العرب فاختلط عليه الامر وتسرب الخطأ الى الالسنة حتى لحن كاتب ابي موسى الاشعري في كتاب ارسله الى عمر بن الخطاب فكتب عمر الى ابي موسى ان اضرب كاتبك سوطاً وقال معاوية الى زياد بعد ما رأى ابنه عبيد الله ان ابنك لكما وصفت ولكن قوم لسانه . وقال الحجاج يوما للشعبي كم عطاءك قال الفين . قال : ويحك كم عطاؤك . قال : ألفان . قال : كيف لحنت اولاً . قال لما لحن الامير لحنت ولما اعرب اعربت . وسمع ابو الاسود الدؤلي قارئاً يتلو (ان الله بريء من المشركين ورسولهِ) بجر رسوله فاكبر ذلك وقال عز وجه الله ان يبرأ من رسولهِ . ونظرت ابنة ابي الاسود الى السماء فراقها منظر شكلها وانجمها . فقالت ما احسن السماءِ فاجابها ابوها نجومها فقالت يا ابت لست مستفهمة بل متعجبة فقال : اذاً قولي ما احسن السماءَ وافتحي فاك . ثم أخبر بذلك كله أمير المؤمنين علياً رضي

الله عنه فاراد ان يضع شيئاً يرجعون اليه ويعتمدون عليه وكان اول ما وضعه (الكلام اسم وفعل وحرف فالاسم ما انبأ عن المسمى والفعل ما انبأ به والحرف ما أفاد معنى) ثم دفع ذلك الى ابي الاسود الدؤلي وقال له انحُ هذا النحو ولهذا سمي الفن نحواً فوضع ابو الاسود بابي العطف والنعت ثم بابي النفي والاستفهام وكان كلما وضع باباً عرضه على الامام علي حتى بلغ ما فيه الكفاية

وقد تناول هذا العلم كثير من علماء اللغة كالخليل وثعلب وسيبويه ويونس والفراء وغيرهم وأشهر من ألف فيه سيبويه وله الكتاب المشهور الذي يرجع اليه النحاة في جميع المشكلات

والنحو علم جليل الفائدة عظيم النفع لانه السبيل الوحيد الى الوقوف على معرفة أسرار اللغة وادراك دقائق معانيها وحل كثير من تراكيبها فالالفاظ لا تزال مقفلة على معانيها حتى يأتي الاعراب ليفتحها فهو المعيار الذي لا يتبين نقص الكلام من رجاحته حتى يعرض عليه والقياس الذي لا يعرف صحيح القول من سقيمه حتى يرجع اليه

***

الصرف — وهو علم تعرف به احكام ابنية الالفاظ المتداولة في المعاني المختلفة وضعه معاذ بن مسلم الهرّاء امام الكوفيين في النحو وقيل ان واضعه هو ابو عثمان بن حبيب المازني البصري المتوفي سنة ٢٤٨ للهجرة

***

العروض — وظهر الخليل بن احمد صاحب كتاب العين في ايام الخليفة هرون الرشيد وكانت له معرفة في الايقاع والنغم اوصلته الى وضع علم العروض وهو علم يعرف به صحيح اوزان الشعر من فاسدها

***

القوافي — ووضع الخليل علم القوافي ايضاً وهو علم يبحث في تناسب الاعجاز وعيوبها في الشعر

***

البديع — وهو علم تعرف به وجوه تحسين الكلام وضعه ابو العباس عبد الله بن المعتز في خلافة المعتمد بالله العباسي

***

المعاني والبيان — المعاني علم تعرف به احوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال . والبيان علم تعرف به طريقة ايراد المعنى الواحد بأساليب مختلفة وقد وضعهما عبد القادر الجرجاني صاحب كتاب دلائل الاعجاز المتوفى سنة ٤٧١ للهجرة

الشعر عند العرب

لم تشتهر أمة بنظم الشعر اشتهار العرب فان ما عرف عن ولوعهم به ومقدرتهم عليه يبعث على الظن بان كلاً منهم كان شاعراً وان احاديثهم المتداولة كانت شعراً . فقد كان الشعر في زمن الجاهلية يرافقهم في كل أعمالهم ويبدو في جميع حركاتهم وسكناتهم ويعبرون به عما يخامرهم من الانفعالات النفسية وقد ساعدهم على ذلك صفاء جوهم واعتدال اقليمهم ونبل صفاتهم وحدة تصورهم الى غير ذلك مما امتازوا به من الخلال الطيبة التي تبعث على شدة التأثر واطلاق الفكر في جو الخيال

اما طريقة توصلهم الى النظم فالغالب على الظن انه لما

كان الانسان مطبوعاً على ايثار لايقاع في الاصوات وترديد نغمة لذت بها اذنه فقد جعل يحاكي مايقع تحت حسهِ من الحركات الى ان نسق كلمات متتابعة منتظمة تغنى بها . وجاء في مروج الذهب ان مضر بن نزار بن معد سقط عن بعيره فانكسرت يده فجعل يقول «يايداه يايداه» وكان من احسن الناس صوتاً فاستوسقت الابل وطاب لها السير. قيل ولعل الهزات الاربع المتتابعة في سير الناقة ارشدته الى ايقاع حدائه على أجزاء رباعية فكان من الحداء الرجز وهو أول بحور الشعر

وما زالت الاوزان ترقى شيئاً فشيئاً حتى بلغت نهضة العرب أشدها في الجاهلية في ايام مهلهل وابن اخته امرؤ القيس وكان امرؤ القيس اول من تفنن في النظم على مايقال وقال ابن خلدون : كان للعرب اولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام اجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون الكلام في تلك الاجزاء تفصيلاً يكون كل جزءٍ منها مستقلاً بالافادة لا ينعطف على الآخر ويسمونه البيت فتلائم الطبع بالتجزئة اولاً ثم

بتناسب الاجزاء في المقاطع والمبادئ ثم بتادية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليه

هكذا ابتداء نظم الشعر عند العرب ولا يخفى ان الشعر من الامور الكمالية التي لا تبلغها أمة الا اذا اجتازت شوطاً في المدنية كما شوهد عند اليونانيين والرومانيين والاوربيين فان الشعر لم يتمثل لقرائحهم الآ بعدما انضجتها العلوم وشحذتها الحضارة . أما العرب فقد تفننوا في نظم الشعر وهم في حالة البداوة وكانوا ينشدونه على انغام تختلف باختلاف الاوزان التي وضعوها فيمثلون به الشجاعة والفروسية والوفاء وما شاكل ذلك

ولما جاء الاسلام انصرف العرب الى الفتوحات والسياسة والتجارة فحدثت هدنة في الشعر وبذلك ضاع اكثر شعر الجاهلية من حافظة الرواة . فلما تم لهم الفتح والسؤدد ورسخت اقدامهم في الحضارة والرفاهية اخذوا يتبارون في نظم الشعر متبعين فيه خطة الجاهلية وأسلوبها ، على انهم كانوا يفضلونهم فيه من حيث التأنق في اختيار الالفاظ التي دفعتهم اليها الحضارة

ثم اخذ الذوق يتبدل عصراً بعد عصر بتبدل احوال المعيشة فبعد ان كان العرب يعيشون عيشة البداوة الخشنة لا مأوى لهم الا خيامهم ولا انيس لهم الا نوقهم اصبحوا يسكنون القصور المزخرفة ويرقدون على الاسرة الوثيرة ويعتلون المركبات الفاخرة فلا عجب اذا تكيفت تصوراتهم بتكيف الاحوال واتساع المجال على ما تقتضيه البسطة في الغنى واختلاف ما كانوا يتناولونه في الاستعارات والتشابيه مما لم يكن للبدوي يدٌ فيه ولم يقع تحت حسه . فالبدوي كان يتكلم في اغراضه الخاصة ووصف الشؤون التي وقعت له . اما الشاعر الحضري فكان مدفوعاً الى ما وراء ذلك من استكراه قريحته على وصف رونق الملك وزخارف الحضارة ومعدات الترف ولذلك غلبت في شعر المولدين الصنعة والتفنن في استنباط المعاني النادرة وسبكها في قوالب ناصعة من اللفظ دون الوحي الروحي

وقد نظم العرب في جميع ما يعرض للمرء من المعاني وقسم الباحثون ما نظموه الى فنون متعددة أبلغها ابن أبي الاصبع العدواني الى ثمانيـة عشر فنًّا وهي الغزل والوصف

والفخر والمدح والهجاء والعتاب والاعتذار والادب والزهد والخمريات والمراثي والبشارة والتهاني والوعيد والتحذير والملاحن والسؤال والجواب وزادوا عليها الزهريات والحكم والمجون والحماسة وهي اشرفها عندهم

وكان الشعر عند العرب مستودع حكمهم وديوان اخبارهم والحاكم لهم والشاهد عليهم وكانت للشعراء في نفوسهم هيبة وخشية اذ ربما رفع بيت من الشعر قبيلة ووضع أخرى فقد روى الجاحظ عن ابي عبيدة ان الرجل من بني نمير كان اذا قيل له ممن الرجل قال نميري فما هو الا ان قال جرير

فغض الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فصار الرجل منهم ينتسب الى عامر كما ان الرجل من بني انف الناقة كان ينتسب الى قبيلة غير قبيلته الى ان قال الحطيئة

قوم هم الانف والاذناب غيرهم
ومن يسوّى بأنف الناقة الذنبا

فصار الرجل اذا قيل له ممن انت قال من بني أنف الناقة .

وقد كان للعرب في الجاهلية مواسم تحضرها الوفود من جميع الجهات يسمونها أسواقاً ويقيمونها في أزمنة وأمكنة معينة لالقاء الخطب وانشاد القصائد. واشهر هذه الاسواق سوق عكاظ بين نخلة والطائف كان يتقاطر اليها العرب من كل جهة ومكان ويقيمون فيها نحو شهرين يبيعون ويشترون ثم يتنافسون ويتفاخرون على مسمع من الجماهير الغفيرة. وكان لذلك المحفل جماعة من الزعماء القرشيين يرأسونه ويقضون في مايسمعونه من القصائد. فمن أجمعوا على استحسان شعره كتبت قصيدته بماء الذهب وعلقت على أستار الكعبة لتخليد ذكر قائلها.

ولا يخفى ما كان لعكاظ وغيرها من الاسواق من الفضل في توحيد لهجات العرب ولغاتهم وتسهيل طرق التعارف بينهم والتمهيد لضم شعثهم وتحقيق وحدتهم القومية

ومن اشهر شعراء العرب امرؤ القيس (٥٣٩ م) شيخهم وزعيمهم وهو صاحب المعلقة الاولى التي مطلعها

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وطرفة بن العبد (٥٥٢ م) وقد مات في السادسة والعشرين من العمر وزهير بن سلمى وعمرو بن كلثوم (٦٠٠م) وعنترة العبسي (٦١٥ م) وغيرهم من اصحاب المعلقات . ومن أشهر شعراء الجاهلية السموأل (٥٦٠م) والمهلهل (٥٧٠ م) وقس بن ساعدة الايادي (٦٠٠ م) والنابغة الذبياني (٦٠٤ م) وحاتم الطائي (٦٠٥ م) وأميـة بن أبي الصلت (٦٣٠ م) والاعشى (٦٢٩ م)

أما الشعراء المخضرمون أي الذين أدركوا الجاهليـة والاسـلام فأشهرهم عمرو بن معدي كرب (٦٤٣ م) والحطيئة والخنساء (٦٤٦ م) ولعلها اشهر شعراء زمانها قال لها النابغة الذبياني بعـد ما سمع شعرها في عكاظ « اذهبي فأنت أشعر من كل ذات ثديين ولولا ان هـذا الاعمى (يعنى الاعشى) أنشدني قبلك لفضلتك على شعراء هـذا الموسم » فسمعه حسان بن ثابت فغضب وقال أنا أشـعر منك ومنها فالتفت النابغة الى الخنساء وقال أجيبيه يا خناس فأقبلت عليه وقالت ما أجود بيت في قصيدتك التي عرضتها قال قولي فيها :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى
واسيافنا يقطرن من نجدة دما

قالت ضعّفت افتخارك وانزرته في ثمانية مواضع في بيتك هذا. قال : وكيف ذلك . قالت : «قلت: لنا الجفنات الغر والجفنات ما دون العشرة ولو قلت الجفان لكان اكثر وقلت الغر والغرة البياض في الجبهة ولو قلت البيض لكان اكثر اتساعا وقلت يلمعن واللمعان شيء يأتي بعد شيء ولو قلت يشرقن لكان اكثر وقلت بالضحى ولو قلت بالدجى لكان ابلغ وقلت اسيافنا والاسياف ما دون العشرة ولو قلت سيوف لكان اكثر وقلت يقطرن ولو قلت يجرين لكان اكثر انصباباً وقلت دماء والدماء اكثر من الدم فسكت حسان ولم يُحِرجوابا

وحسان بن ثابت هذا (٦٧٤) من اشهر الشعراء المخضرمين وكذلك النابغة الجعدي (٦٨٠) والامام علي وغيرهم

واشهر الشعراء المتقدمين أي شعراء الدولة الاموية هم مالك بن الريب وهو صاحب القصيدة المشهورة التي مطلعها:

دعاني الهوى من اهل ودي وصحبتي
بذى الطّبسين فالتفت ورائيا

وليلى الاخيلية والاخطل والفرزدق وجرير وذو الرمه وزياد وحماد والاحوص وغيرهم

اما الشعراء المولدون اي شعراء الدولة العباسية فاشهرهم ابو دلامة (١٦١ هـ) وبشار بن برد (١٦٨ هـ) ومروان بن ابى جعفر (١٨١ هـ) وابو النواس (١٩٥ هـ) وابو العتاهية (٢١١ هـ) وابو تمام (٢٣١ هـ) ودعبل (٢٤٦ هـ) والبحتري (٢٨٤ هـ) وابن المعتز (٢٩٦ هـ) وابن الحجاج (٣٩١ هـ) والمتنبي (٣٥٤ هـ) وابو فراس الحمداني (٣٥٧ هـ) وابو العلاء المعرى (٤٤٩ هـ) والشريف الرضي (٤٠٦ هـ) والطغرائي (٥١٣هـ) وابن الفارض (٦٣٢هـ) وبهاء الدين زهير (٦٥٦هـ) وغيرهم .

الخطابة عند العرب

كانت الخطابة على درجة رفيعة من الارتقاء في الجاهلية وصدر الاسلام وكان الخطباء يتخيرون لخطبهم اجزل المعاني

وأرق الالفاظ تحصيلاً لغرضهم وبياناً لافكارهم . ومن عاداتهم فيها ان الخطيب يحرك يده باشارة تدل على مقاصده وتسترعي انتباه السامعين وأحياناً يتوكأ على عصا فاذا كان المقام مقام حرب أو ماشا كل ذلك مما يبعث على المفاخرة أو الحماسة أشار بالعصا أو القنا

واستحسن العرب في الخطيب ان يكون جهوري الصوت واضح اللفظ سريع الخاطر قال الشاعر في شبيب وكان يخطب في الجيش محمساً

ان صاح يوماً حسبت الصخر منحدراً
والريح عاصفة والموج يلتطم

ومن أشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة الايادي أسقف نجران خطيب العرب وشاعرها قيل انه اول من علا على شرف (١) وخطب عليه وأول من قال في كلامه أما بعد وأول من اتكأ في خطبته على سيف أو عصا ويضرب به المثل في الفصاحة فيقال أفصح من قس

وأشهر خطباء صدر الاسلام الامام علي رضي الله عنه

(١) مكان عالٍ

وما وصل الينا من خطبه يدل على تفوقه في هذا الفن وابداعه فيه وهي مجموعة في كتاب نهج البلاغة جمعها الشريف المرتضي المتوفي سنة ٤٣٦

ولما انتقل الملك الى بني أمية اقتضت الحال استنهاض الهمم على القتال باقناع الناس على الكفاح واثارة الحماسة في صدورهم فاشتهر حينئذٍ عدد عظيم من الخطباء واكثرهم من القواد والائمة والعمال ومن أشهرهم زياد (٥٥ هـ) ومن خطبهِ خطبة له في أهل البصرة تعرف بالبتراء قال فيها « واني أقسم بالله لاخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والصحيح بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه أو تستقيم لي قناتكم . وقد أحدثتم احداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوماً غرقناه ومن أحرق قوماً أحرقناه ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً وقد كانت بيني و بين قوم احن فجعلت ذلك دبر اذني وتحت قدمي فمن كان محسناً فليزدد في احسانه ومن كان مسيئاً فلينزع عن اساءته »

ومن أشهر خطباء العرب سحبان وائل (٥٥ هـ)

يضرب به المثل في الفصاحة وقوّة العارضة حكى الاصمعي قال : كان اذا خطب يسيل عرقاً ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ من موضوعه لم يندّ عن ذاكرته معنى

ومنهم الحجاج بن يوسف الثقفي وله خطب شهيرة تدل على حنكة نادرة وملكة معجزة وكانت أقواله تنقض على سامعيه كالصواعق فتنخلع لها القلوب وتخور القوى قيل انه لما ولي العراق ودخل الكوفة لاول مرة صعد المنبر متلثماً متنكباً قوسه فجلس واضعاً ابهامه على فيه فاحتقره القوم وكادوا يحصبونه كفعلهم بالولاة من قبله فلما غص المجلس بأهله حسر عن وجهه ثم قام ونحّى عن رأسه وقال :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا　　متى اضع العمامة تعرفوني

«اني والله لارى أبصاراً طامحة وأعناقاً متطاولة ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها واني لصاحبها وكأني أنظر الى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى .

ان أمير المؤمنين عبد الملك نكب كنانته وعجم عيدانها فوجدني اصلبها عوداً وأشدها مكسراً فوجهني اليكم ورماكم بي

اما والله يا اهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الاخلاق لالحونكم لحو العصا ولاعصبنكم عصب السلمة ولاقرعنكم قرع المروة ولاضربنكم ضرب غرائب الابل ، يا اهل العراق انا الحجاج بن يوسف والله ما احلف الا وفيت وما اخلق الا فريت . اياكم وهذه الزرافات والجماعات وقال وقيل وما هو كائن وما انتم وذلك ، لينظر الرجل في أمر نفسه وليحذر ان يكون من فرائسي . »

ومنهم طارق بن زياد فاتح الاندلس وله خطبة شهيرة في جيشه قبل اشتباك القتال قال بعد ما عبر مضيق جبل طارق وأحرق مراكبه اقناطاً لرجاله من العود الى افريقية :

« ايها الناس أين المفر والبحر وراءكم والعدو أمامكم اعلموا انكم في هذه الجزيرة أضيع من الايتام في مأدبة اللئام ولا وزر لكم الا سيوفكم وقد انتخبكم أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ثقة منه بارتياحكم الى الطعان ومجالدة الابطال والفرسان واعلموا اني اول مجيب الى ما دعوتكم اليه » الى آخره . وهي من أبلغ الخطب الحماسية في تاريخ الحروب

الانشاء

كان العرب في اوائل أمرهم يكتفون في مراسلاتهم بما يؤدي الغرض من عبارات يسبكونها في أمتن قالب من البلاغة وكانوا يتحرون الايجاز في الكتابة وقد اثر عنهم من عظائم الحكم ما يعد من اسمى آيات البلاغة ويشهد لهم بقوة العارضة ورسوخ القدم في الحكمة والادب

ولما خالط العرب الامم المجاورة لهم اقتبسوا أساليبها في التطويل واستعمال أفخم العبارات وأدلها على التعظيم والاجلال فقسموا الكلام فقراً وتلاعبوا بالالفاظ وتفننوا في الاستنباط وتهافتوا على غرائب المعاني ودقائق الاغراض وحلوا كلامهم بروائع الاستعارات وبدائع التشبيهات ولطائف الكنايات وخلعوا عليه زخارف البديع الباهرة فبلغوا منتهى الكمال وحد الاعجاز ونشأ منهم كتاب أعلام لا يشق لهم غبار ولا يجارون في مضمار منهم ابن المقفع (١٥٨ هـ) معرب كليلة ودمنة وصاحب كتاب الدرة اليتيمة وغيره .

ومنهم ابو عثمان الجاحظ (٢٥٥هـ) لقب بذلك لجحوظ

عينيه وله مؤلفات عديدة تدل على سعة معارفه وغزارة مادته أهمها كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء وغيرها

ومنهم ابن العميد (٣٦٦ ﻫ) ويضرب به المثل في البلاغة والخوارزمي (٣٨٣ ﻫ) والصابي (٣٨٤ ﻫ) وبديع الزمان الهمذاني (٣٩٨ ﻫ) والحريري (٥١٦ ﻫ) صاحب المقامات المشهورة وابن الاثير (٦٣٧ ﻫ) وغيرهم

وتفنن العرب في انشاء الرسائل الفلسفية الخيالية على نحو ما يرى في رسالة الغفران لابي العلاء المعري . فقد تخيل رجلاً صعد الى السماء ووصف ماشاهده هناك كما فعل دانتي شاعر الايطاليان في (الرواية الالهية) وكما فعل ملتن الانكليزي في «ضياع الفردوس» على ان أبا العلاء سبقهما الى ذلك ببضعة قرون فهو توفي سنة ٤٤٩ ﻫ . في حين ان دانتي توفي سنة ٧٢٠ ﻫ وملتن توفي نحو سنة ١٠٨٤ فلا يبعد ان يكونا قد اقتبسا أفكاره ولاسيما دانتي فان مبتكراته لم تنضج الا بعد احتكاكه بالعرب . ولابي العلاء رسائل تعد بالمئات ومثلها لغيره من أكابر المصنفين الذين لا يتسع نطاق هذا

الـكتاب لتعدادهم

وقد ابدع العرب في مقامات سبكوها في قالب روائي وضمنوها من فصاحة العبارات ولطف المجاز والحكم والامثال ما يأخذ بلب القارئ كمقامات بديع الزمان الهمـذاني والفيروزبادي والحريري والحسكفي وغيرهم . أما الروايات فمقصورة عنـدهم على قصص سطرت عرضاً في التواريخ ما خلا القليل منها كما في كتاب الف ليلة وليلة وما ترجموه عن الفرس كما في كتاب كليلة ودمنة الى غير ذلك من الامثال الحكمية المنسوبة الى لقمان

العلوم الدينية واللسانية

توفرت العلوم بعد الاسـلام فبلغ عددها ثلاثمائة علم ومعظمها تولد من القرآن الشريف او بسببه وذلك ان العرب أعجبوا بلغة القرآن وما في آياته من بلاغة وفصاحة ونثرٍ يزري بالشعر كما سحروا بما تضمنه من الشرائع والاحكام فأصبح همهم تلاوته وتفهم معانيه

وقد احتاجوا في ضبط قراءته الى عـلم النحو وذلك لما

رأوه من انتشار اللحن بين العرب بعد اختلاطهم بالاجانب فقد سمع أبو الاسود الدؤلي رجلاً يقرأ الآية «ان الله بريء من المشركين ورسولِهِ» بجر رسوله فحمله ذلك على وضع النحو وضبط الحركات كما تقدم

وافتقر العرب في ضبط قواعد النحو وتأييدها وتفهم آيات القرآن الى معرفة كلام الجاهلية وأساليبها فكانوا اذا التبس عليهم أسلوب أو لفظة منها عادوا الى الشعر الجاهلي وبحثوا حيث وردت تلك اللفظة فقاسوا عليها ثم جعلوا بعد ذلك يؤلفون كتب الادب خدمة للقرآن فتفرع منها علوم لسانية أي تتعلق بالالفاظ وهي تزيد على عشرين علماً كالصرف والاشتقاق والمعاني والبديع وغيرها

***

علم الحديث — الحديث هو ما ورد عن النبي (صلعم) من قول أو فعل غير مدون في القرآن . وقد كان العرب في صدر الاسلام يرجعون الى صاحب الشريعة الاسلامية في تفهم آيات القرآن الشريف فلما توفي تفرق الصحابة في الارض بعد الفتوح فنقلوا الحديث معهم واشتغل أهل

القرائح بتدوينه وتفسير معانيه فاجتمع لديهم من ذلك مؤلفات عديدة

***

علم التفسير — عرف الصحابة من النبي (صلعم) سبب نزول الآيات وما يتقدم منها وما يتأخر وما يكون ناسخاً و منسوخاً ونقل ذلك عنهم وتداولته الالسنة في صدر الاسلام الى ان صارت المعارف علوماً ودونت الكتب ونقلت الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين . وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا ولكن كتبهم شملت المقبول والمردود فلما رجع الناس الى التحقيق والتمحيص جعل الائمة يلخصون التفاسير ويتحرون ما هو اقرب الى الصحة منها وقد اشتهر منهم كثيرون

***

علم الفقه — هو علم تطبيق أحكام الشريعة على أعمال البشر للتمييز بين حلالها وحرامها وقد استخرج هذه الاحكام في صدر الاسلام الصحابة ومن اليهم من التابعين وتابعي التابعين

ولما كان علم الفقه قائماً على قوة النظر في التطبيق والاستنتاج نجم عن ذلك اختلاف في التفسير والتأويل اذ لكل من الناس رأي خاص فيه فكان من اختلافهم انقسام الفقه الى طريقتين طريقة مرجعها العقل والقياس وواضعها الامام أبو حنيفة وطريقة مرجعها الحديث وواضعها مالك ابن أنس ومن هاتين الطريقتين تفرعت مذاهب الاسلام الاربعة في الفقه وهي المذهب الحنفي والمذهب المالكي والمذهب الشافعي والمذهب الحنبلي

ونبغ طائفة من تلامذة الأئمة الاربعة فألفوا كتباً عديدة ذهب معظمها أما الباقي منها فأشهره كتاب الخراج وكتاب المبسوط وكتاب الزيادات وكتاب الجامع الكبير وكتاب الآثار وكتاب السير الكبير وغيرها .

وقد نضج علما الحديث والفقه على ما فيهما من استنباط الاحكام الواسعة والشرائع العادلة قبل انقضاء القرن الثاني للهجرة وذلك ما لا نرى مثله في تاريخ الامم الاخرى فان الشريعة اليونانية مثلاً لم تضبط أحكامها وقوانينها الا في عهد يوستينيانس أي بعد تأسيس الدولة

الرومانية بأكثر من عشرة قرون

***

علم الفرائض — ومن فروع الفقه علم الفرائض وهو معرفة فروض الوراثة وطريقة تقسيم التركة وللعرب فيه تآليف كثيرة تشهد لهم بطول الباع في الفقه والحساب

***

علم الكلام — تلقى العرب أحكام الشرع في صدر الاسلام بتهيب واعظام وعقدوا عليها قلوبهم بلا بحث ولا انتقاد غير ان جماعة بعدهم خالفوهم في ذلك وأكثروا من مجادلتهم حتى في عقائد الدين عينها فكثرت البدع وتفاقم الخلاف وظهرت المعتزلة وكانوا لا يهابون مد يدهم الى القرآن نفسه وعرض آياته على بساط البحث والصفاتية والقدرية والجبرية والمرجئة وهم القائلون « لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة » والخوارج وكانوا ينتقدون الصحابة ويكفرونهم والسبئية وهم اصحاب عبد الله بن سبأ الذي يقول بألوهية علي بن أبي طالب والذمية الذين يزعموا ان محمداً (صلعم) أرسل ليدعو لعلي فدعا لنفسه

والباطنية وغيرهم

وظلت الحال كذلك الى ان جاء أبو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري فاهتم بالتسوية بين هذه الاراء ووافقه جماعة من العلماء فوضعوا مؤلفات جمة في علم الكلام

والفرق بين علم الكلام وعلم الفقه ان الاول يبحث في الاصول كالتوحيد والصفات والوحي والوعد وما أشبه ذلك من قواعد الايمان وان الثاني يبحث في الفروع كالصوم والصلاة والذكاة والطلاق وما شاكل ذلك

وأعظم علماء الفقه والكلام الامام أبو حنيفه (١٥٠ﻫ) والامام مالك (١٧٩ ﻫ) وواصل بن عطا (١٨١ ﻫ) والامام الشافعي (٢٠٤ ﻫ) والامام محمد بن حنبل (٢٤١ ﻫ) والبخاري (٢٥٦ ﻫ) وأبو الحسن مسلم (٢٦١ ﻫ) وأبو بكر الظاهري (٢٩٨ ﻫ) والاشعري (٣٣٠ ﻫ) وهو واضع علم الكلام والغاني الباقلاني (٤٠٤ ﻫ) والغزالي (٥٠٥ ﻫ) الملقب بحجة الاسلام وغيرهم

وأنشأ الاشعري ٥٥ مصنفاً منها كتاب اللمع وكتاب الموجز وكتاب ايضاح البرهان وكتاب التبيين على أصول

الدين وكتاب الشرح والتفصيل وكتاب الابانة وكتاب تفسير القرآن

***

التصوف — قيل التصوف نسبة الى الصوف الذي كان يلبسه المتصوفون مخالفة للناس في لبس فاخر الثياب وقيل انه من الصفاء أو الصفو وذلك لصفاء القلب وطهارته من أدران الفساد وظهر من علماء التصوف كثيرون خلفوا آثاراً مفيدة منهم عبد الوهاب الشعراني وقد أنشأ نحو خمسين كتاباً

وعلى الجملة فقد ظهر من علماء الدين فطاحل أحدثوا تأثيراً عظيماً في الآداب الاسلامية لا يسعنا ذكرهم لوفرة عددهم وكثرة تصانيفهم

الفلسفة

للفلسفة حالان عند العرب حال الجاهلية وحال الاسلام وقد أجمع المؤرخون على ان الجاهلية كانت على جانب عظيم من الفلسفة والعلم وان فيثاغورس نفسه استمد معارفه

الفلسفية منهم كما روى الفيلسوف ملك (بورفيروس) ووافقه جماعة من المتأخرين

على ان فلسفة العرب اقتصرت في آخر عصر الجاهلية على بعض تعاليم أدبية مصدرها التجربة ودرس أخلاق الناس فلما نقلت الفلسفة اليونانية الى لغتهم بعد الاسلام انصرفت أفكارهم الى درسها وتمحيصها وايجاد فلسفة جديدة خاصة بهم. وكان اكثر اشتغالهم في الفلسفة بما وراء الطبيعة على مذهب ارسطو وأول من نقل هذا المذهب الى العربية عبد الله بن المقفع معرب كليلة ودمنة الذي أسلم في عهد أبي جعفر المنصور وكان كاتباً لعيسى بن علي عم الخليفة. وأول من اشتهر بالفلسفة يعقوب الكندي الملقب بفيلسوف العرب من رجال القرن الثالث وله عدة تآليف في المنطق والفلسفة وشروح على كتب ارسطو وكان يتعاطى الطب أيضاً وله مصنفات في الهندسة والحساب والموسيقى والهيئة وكذلك اشتغل بالفلسفة حنين الطبيب ويحيى النحوي واسحق بن حنين العباديّ وثابت بن قرّة وقسطا بن لوقا البعلبكي فعربوا كثيراً من كتب اليونان وكان أكثر

ما عربوه في الفلسفة عن السريانية فكان من خريجيهم الكندي ومحمد بن مسعود وأبو تمام النيسابوري وأبو سهل البلخي وغيرهم . ثم نبغ بعدهم جماعة اشتهروا بالمنطق والفلسفة منهم أبو نصر الفارابي من رجال القرن الرابع ومن أكبر فلاسفتهم ذكره صاعد بن أحمد القرطبي في كتاب طبقات الحكماء فقال : الفارابي فيلسوف المسلمين . وللفارابي عدة تآليف في الفلسفة والموسيقى والسياسة المدنية وقد ترجم مؤلفات كثيرة لارسطو وطبع له بعض مصنفات في اوربا وأشهرها كتابه في السياسة المدنية

وجاء بعده الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن سينا الطبيب الفيلسوف المشهور ولد في أواخر القرن الرابع وكان نادرة عصره علماً وذكاء قال ابن خلدون : « لما بلغ ابن سينا عشر سنين من عمره كان قد أتقن علم القرآن والادب وحفظ أشياء من أصول الدين والحساب والهندسة والجبر والمقابلة ثم قرأ على الحكيم عبدالله النائلي كتاب ايساغوجي واقليدس والمجسطي وأحكم عليه علم المنطق وفاقه أضعافاً كثيرة حتى أوضح له منها رموزاً وفهمه اشكالات لم يكن

النائلي يدريها ثم اشتغل بتحصيل العلوم الطبيعية والالهية وغيرها ثم رغب في علم الطب حتى فاق الاوائل والاواخر في أقل مدة وسنه اذ ذاك ست عشرة سنة

ولابن سينا ما يقرب من مئة مصنف أشهرها كتاب



الشيخ الرئيس ابن سينا

القانون في الطب وهو في أربعة عشر مجلداً وكتاب الشفاء في ثمانية عشر مجلداً جمع فيه العلوم الفلسفية وكتاب النجا في ثلاثة مجلدات وهو مختصر الشفاء وكتاب الحكمة العرشية

في الالهيات وكتاب تدبير الجند والممالك في الارزاق والخراج وكتاب المدخل الى صناعة الموسيقى وغير ذلك مما يطول تعداده . ونقلت أكثر كتبه الى اللغات الاوربية وسارت عليها مدارس اوربا الطبية والفلسفية ما يزيد على ٦٠٠ سنة

أما في بلاد الاندلس فممن اشتهر بالعلوم الفلسفية ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد من أهل قرطبة ولد في أواخر القرن الرابع وله تصانيف عديدة

ومنهم ابن باجة أبو بكر محمد بن يحيي التجيبي السرقسطي المعروف بابن الصائغ من رجال القرن السادس كان من أكبر فلاسفة العرب بالاندلس وكانَ متضلعاً من علم الهيئة والرياضيات والطب والموسيقى . وقد صنف في الرياضيات والمنطق وشرح جملة من كتب ارسطو وله عدة رسائل في أغراض فلسفية منها رسالة في النفس وأُخرى في اتصال العقل بالانسان ورسالة عنوانها الوداع وهي تشتمل على مباحث في القوة المحركة في الانسان العاقل وخلود النفس وله كثير غير ذلك

ومنهم ابن الطفيل أبو بكر محمد بن عبد الملك القيسي

الفيلسوف الطبيب وهو فيما ذكروا أول من قال بتدرج الانسان عن الحيوان وله مصنفات عديدة في الفلسفة والهيئة

ومنهم القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المالكي القرطبي وهو من أشهر علماء الاندلس وفلاسفتها وكانت له شهرة طائرة في الطب أخذه عن أبي جعفر بن هرون الاسرائيلي ثم نزع الى الحكمة فحسن أثره فيها واستقصى شرح مذهب ارسطو الى أبعد غاية يرجى نيلها . وله تصانيف كثيرة اكثرها في الاغراض الفلسفية وله مؤلف نفيس في الطب سماه الكليات في معالجة الامراض وشرح على ارجوزة ابن سينا وآخر على القانون وتلخيص لبعض مؤلفات جالينوس

ويندر الآن وجود أصل لمؤلفاته في اللغة العربية وأكثرها مترجم الى اللاتينية من ذلك شرح أقوال ارسطو مع الرد على الغزالي في أحد عشر مجلدا طبعت في البندقية سنة ٩٦٨ هجرية ونقل كثير من مؤلفاته الى اللغة العبرانية وكانت كتبه تدرس في كل مدارس أوربا وقد كتب رسائل كثيرة في الفلك وهو أول من كشف السفع على وجه

الشمس . وممن كتب عنه من الافرنج رينان الفرنسوي فانه ألف كتاباً سماه ابن رشد قرر فيه سيرته ومؤلفاته وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٨٥٢ للميلاد . وتوفي ابن رشد سنة ٥٩٥ هجرية وهو آخر فلاسفة العرب في الاندلس .

وقد قال الدكتور غستاف لبون ان ابن رشد فاق جميع الفلاسفة المتقدمين وجاهر بمبادئ فلسفية عديدة لا تزال أساساً لفلسفة هذا العصر .

ومذهب ابن رشد في الفلسفة هو ان مادة العالم أزلية وان الخلق حركة اضطرارية في تلك المادة تنشأ عنها الكائنات وتتولد بعضها من بعض أما الخالق فهو الحركة أو المحرك . وكما ان المادة أزلية فكذلك المخلوقات .

قالوا ويؤخذ من هذا المذهب ان النفوس تموت مع الاجساد وترجع الى مادتها الاصلية التي لا خلود الا لها . أما العقول فواحدة في البشر ترجع كلها الى العقل الاول الذي نسميه العقل الفاعل الازلي تمييزاً له عن العقل المنفعل الحادث وهذا العقل الازلي هو وحده متصل بالله .

ومن فلاسفة العرب الذين كانت تعاليمهم دعامة لبعض

المبادئ الفلسفية العصرية الشاعر الفيلسوف ابو العلاء احمد ابن عبد الله التنوخي المعري من الفلاسفة النظريين الذين يعتمدون على العقل خاصة



أبو العلاء المعري

أما المبادئ التي قامت عليها فلسفة العرب فأهمها ان السعادة هي في ادراك الوجود مع تهذيب النفس وتخلقها

بالفضائل وان ذلك في استطاعة الانسان وان تمييزه بين الفضيلة والرذيلة وميله الى المحمود واجتنابه المذموم بمقتضى عقله وفطرته لهي السعادة وان الجهل بذلك لهو الشقاء السرمدي وهذا عندهم معنى النعيم والجحيم في الآخرة وقد ذهبوا الى ان ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه لان مقدمات البرهان من شرطها ان تكون ذاتية

وأشهر فلاسفة العرب هم يعقوب بن اسحق الكندي (٢٤٦ هـ) والفارابي (٣٣٩ هـ) وابن سينا (٤٢٩هـ) وابن الطفيل (٥٨١ هـ) وابن رشد (٥٩٥ هـ) وهو أشهر فلاسفة العرب ويسميه الافرنج «افرّويس» وله عندهم منزله عالية وقد نقلوا معظم مؤلفاته الى لغتهم

المنطق

المنطق علم يعرف به الصحيح من الفاسد في الحدود المعروفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات على ما عرفه ابن خلدون في مقدمته وقد ألف فيه العرب كتباً عديدة جعلوها ثمانية أنواع الاولى في الاجناس العالية التي ينتهي اليها تجريد المحسوسات ويسمى كتاب المنقولات

والثاني في القضايا التصديقية ويسمى كتاب العبارة. والثالث في القياس وصورهِ ويسمى كتاب القياس والرابع في البرهان وهو النظر في القياس المنتج للتعيين وكيف يجب ان تكون مقدماته يقينية ويسمى كتاب البرهان والخامس في الجدل وهو القياس المفيد افحام الخصم والسادس في السفسطة وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق ويغالط به المناظر صاحبه والسابع كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور والثامن كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للاقبال على الشيء أو النفرة عنه وما يجب ان يستعمل من القضايا التخييلية ثم أضافوا الى ذلك كتاب الكليات الخمس المفيدة للتصور . وأعظم المؤلفين من العرب في هذه العلوم الفارابي وابن سينا وابن رشد ولابن سينا كتاب الشفاء وهو مشهور .

ثم عدل العرب عن كل هذه الفروع ونظروا الى المنطق كعلم قائم برأسه وأول من فعل ذلك الامام فخر الدين الخطيب ومن نحا نحوه من بعده فاعتمدت كتبهم وهجرت كتب المتقدمين

التاريخ

لم يصل الينا من مؤلفات العرب التاريخية الاّ ما وضع منها بعد الاسلام لان عرب البادية لم تعن بضبط أخبارها وتدوينها في الجاهلية ولان ما دوّنه العرب المتحضرون الذين انشأوا الممالك العظيمة كالعمالقة والنبط والحميريين والتدمريين لا يزال معظمه تحت الرمال

فلما تأسست الوحدة العربية واجتاحت جيوش العرب مملكتي الفرس والروم اتجهت الانظار الى ضبط الاخبار وتدوين الوقائع حباً بخلود الذكر ومباهاة الامم الاخرى فجعل العلماء يدوّنون حوادث زمانهم ويبحثون عن أخبار أسلافهم

وقد استخرج العرب دفائن تاريخهم القديم من مصدرين عظيمين أولهما شعر الجاهلية وثانيهما رواية النساب فجمعوا منهما ما رأوه قريباً من الصواب ودوّنوه في كتب عديدة . على ان تاريخ الجاهلية لا يزال غامضاً وسيظل كذلك الى ان تزهر نهضة العرب الجديدة فيستأنف علماء الغد

البحث عن آثار أجدادهم تحت رمال اليمن ونجد والكرك والعراق لازاحة القناع عن حوادث تلك العصور المتقادمة وبعثها حية للعالم عبرةً وذكرى

وقد نبغ كثيرون من مؤرخي العرب وأحصى الافرنج منهم ١٢٠٠ مؤرخاً . على انهم اقتصروا كلهم تقريباً على ايراد الحوادث مجردة عن كل رأي لهم فيها شأن فئة صغيرة من المؤرخين العصريين الا ابن خلدون ومن نحا نحوه فانهم أحيوا كتاباتهم بروح الفلسفة والتمحيص والانتقاد فعللوا الحوادث وردوا المسببات الى أسبابها بالقياس الصحيح وحملوا المتشابهات بعضها على بعض واستدلوا بالقرائن على خفايا الامور وغوامض الاسباب

والمؤرخون العرب أقسام فمنهم من كتب في التاريخ العام ومنهم من كتب في تاريخ مملكة أو دولة ومنهم من اقتصر على تراجم مشاهير الاعلام

واول من كتب في التاريخ من العرب بعد الاسلام ابو جعفر الطبري من اهل القرن الثالث وتاريخه يبتدئ من بدء الخليقة الى سنة ٣٠٢ هـ وهو كتاب ضخم من اصح

التواريخ وأثبتها . وكانت نسخته الاصلية قد فقدت ثم وجد جانب منها فطبع في مدينة لَيْدِن سنة ١٨٧٩ م وله نسخة فارسية ترجمت الى الفرنسوية سنة ١٨٣٦ م

ومن معاصريه اليعقوبي المعروف بابن واضح وله تاريخ عام ينتهي الى خلافة المعتمد

ومن مشاهير المؤرخين العرب ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي (٣٤٥ ﻫ) وكان من محبي الاسفار فقد عانى رحلة طويلة لا تقل عن رحلات مشاهير الرحالة في هذا العصر فطاف في بلاد فارس والخزر والهند والتيبت وجزيرة سيلان وجزيرة مدغسكر وشبه جزيرة العرب وفلسطين وسورية وبلاد الروم ومصر وشواطئ بحر قزوين وله تآليف مشهورة اهمها كتاب مروج الذهب وهو الكتاب الذي لم تصل اليه يد الضياع وكتب أُخرى عديدة طوتها الايام .

ومنهم ابو الفرج (٣٩٦ ﻫ) وله كتاب الاغاني في واحد وعشرين جزءًا وهو اشهر من نار على علم

وابن الاثير (٦٣٠ ﻫ) وله مؤلفات عديدة اشهرها اسد الغابة في معرفة الصحابة وهو رأس كتب التراجم

وكتاب الكامل في التاريخ ويتضمن اخبار العالم من الخليقة الى سنة ٦٢٨ هـ

ومنهم ابن خلكان (٦٨١ هـ) وله مؤلف شهير في التراجم اسمه وفيات الاعيان

ومنهم ابن خلدون فيلسوف المؤرخين وهو من اهل القرن الثامن وله التاريخ المشهور الموسوم بكتاب المبتدإ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر وهو كتاب كبير صدّره بمقدمة طويلة تزيد على خمس مئة صفحة وهي من اجل ما كتب في فلسفة التاريخ تكلم فيها عن طبيعة العمران وما يعرض فيه من البدو والحضر والكسب والمعاش والصنائع والعلوم واحوال السياسة والدول الى غير ذلك من الابحاث المتنوعة والاسباب الداعية الى رفع شأن الممالك وانحطاطها

ومنهم المقريزي وابو الفداء وابن العبري وغيرهم

الجغرافية

الجغرافية علم يبحث في وصف الارض وتقسم الى ثلاثة فروع وهي الجغرافية الرياضية والجغرافية الطبيعية والجغرافية السياسية

فالجغرافية الرياضية او الفلكية تبحث في شكل الارض وحجمها وحركتها وتعيين مواقع الاماكن على سطحها واكثر موضوعات هذا الفرع يتعلق بعلم الهيئة

والجغرافية الطبيعية تبحث في حالة الارض الطبيعية واوصافها وصلاتها بالنظام الشمسي وتبين ماهية الهواء الكروي والحركات الكبرى كحركات التيارات الغمرية والهوائية ومن ابحاثها اشكال القارات والبحار واقسام اليابسة وسلاسل الجبال وارتفاعها وظواهر الصحارى وتركيب الارض الجيولوجي وجميع المظاهر المتيورلوجية وموارد الارض الطبيعية من حيوان ونبات وما شاكل ذلك

والجغرافية السياسية تبحث في الامم ومواطنها واقسامها السياسية وفي الجنس البشري من الوجهة الاجتماعية

وقد الف العرب في كل هذه الفروع وفاقوا معاصريهم وساروا في علم الجغرافية شوطاً بعيداً

وكان العرب اشد الناس ولوعاً بالاسفار وكانت لهم تجارة واسعة في البلاد التي لم يكن يحلم الاوربيون بوجودها كبعض اقسام افريقية وروسيا والصين ، ومعرفة حسنة

باحوال النجوم وطرق القوافل ومدن الممالك المجاورة لهم

على ان هذه المعلومات العظيمة كانوا يتناقلونها في ما بينهم بلا تدوين ولا تبويب على ما نعلم فلما جاء الاسلام واجتاح العرب معظم ممالك العالم القديم اشتدت الحاجة الى معرفة جغرافية البلاد التي فتحوها والبلاد التي كانت لهم تجارة فيها فعربوا كتب اليونان وأجالوا فيها يد الترتيب وزادوا عليها ما كان لديهم من المعلومات وعانوا الاسفار براً وبحراً وصححوا كتاب بطليموس وأضافوا اليه نتيجة ابحاثهم مع ابقاء اسم هذا العلم على اصله اليوناني « جغرافية »

وأقدم ما وصل الينا من الكتب العربية التي ذكرت سياحات العرب الى الهند والصين كتاب ألفه سليمان التاجر ثم كتاب آخر لابي زيد حسن وكلاهما من ابناء القرن الثالث للهجرة وكان كتاب سليمان اول كتاب نشر في اوربا عن الصين وقد ترجم الى الفرنسوية سنة ١٨١١

ونبغ من جغرافيي العرب ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي (٣٤٥ هـ) فقد عانى رحلة طويلة لا تقل شأناً عن رحلات أعظم جوابي الآفاق في عصرنا ثم ابن حوقل

(٣٨٠ هـ) الذي طاف في الجزيرة والعراق وفارس والشام ومصر والمغرب وبلاد البربر والاندلس وصقلية ووصف رحلته هذه في كتاب مطول سماه « المسالك والممالك والمفاوز والمهالك » وزينه بكثير من الرسوم والخرائط ثم البيروني (٤٤٠ هـ) وياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) وله كتاب معجم البلدان

وأشهر أصحاب الرحلات من العرب ابن بطوطه (٧٧٧هـ) زار الحجاز والعراق ومصر والشام واليمن والهند ودخل مدينة دلهي حاضرة البلاد وساح في الاقطار الصينية فوقع في الاسر ثم تملص منه بعد عناء طويل وعاد فدخل بلاد التتر وتوغل في اواسط افريقه الى تمبتكو وطاف في الاندلس وبخارا وجافا وخراسان وسيلان ووصل الى بكين ومر بالاستانة وألقى عصا التسيار في مدينة فاس حيث أملى على الكاتب محمد بن جزيّ الكلبي وصف ماشاهد من الامصار وما علق بذاكرته من نوادر الاخبار وقد جمع ذلك في سفر طويل سمي « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » ونقل الى معظم اللغات الاوربية

وقال العلامة ملطبرون انه خرج من لشبونه ببلاد الاندلس قبل كلمبس بزمن طويل جماعة من العرب يقال لهم المغروورون فركبوا البحر وجعلوا يبحثون عن اراض جديدة في الاتلانتيك ولكن الحظ لم يساعدهم كما ساعد كريستفورس كلمبس من بعدهم

فهذه الرحلات العظيمة مع سعة معارف العرب الفلكية سارت بعلم الجغرافية شوطاً بعيداً ومكنتهم من تصحيح أغلاط بطليموس وقياس البلاد قياساً دقيقاً ومعرفة مواقع المدن فيها

وأعظم علماء الجغرافية عند العرب هو الشريف الادريسي (٥٧٥ هـ) فقد أولع بالاسفار منذ نعومة اظفاره فجاب بلاد الروم واليونان ومصر ومراكش وفرنسا وبريطانيا ليرى بعينه ماسمع عنها فذاع ذكره في الآفاق وسمع به روجار الثاني ملك صقلية فدعاه اليه واقترح عليه ان يدوّن معارفه الجغرافية ففعل في كتاب سماه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وهو كتاب مستوعب لاطراف علم الجغرافية وقد اضاف الى معلوماته الخاصة ما دوّنه اسلافه جغرافيو العرب في مؤلفاتهم فترجم كتابه الى معظم اللغات

(٣٨٠ هـ) الذي طاف في الجزيرة والعراق وفارس والشام ومصر والمغرب وبلاد البربر والاندلس وصقلية ووصف رحلته هذه في كتاب مطول سماه « المسالك والممالك والمفاوز والمهالك » وزينه بكثير من الرسوم والخرائط ثم البيروني (٤٤٠ هـ) وياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) وله كتاب معجم البلدان

وأشهر أصحاب الرحلات من العرب ابن بطوطه (٧٧٧هـ) زار الحجاز والعراق ومصر والشام واليمن والهند ودخل مدينة دلهي حاضرة البلاد وساح في الاقطار الصينية فوقع في الاسر ثم تملص منه بعد عناء طويل وعاد فدخل بلاد التتر وتوغل في اواسط افريقه الى تمبتكو وطاف في الاندلس وبخارا وجافا وخراسان وسيلان ووصل الى بكين ومر بالاستانة وألقى عصا التسيار في مدينة فاس حيث أملى على الكاتب محمد بن جزيّ الكلبي وصف ماشاهد من الامصار وما علق بذاكرته من نوادر الاخبار وقد جمع ذلك في سفر طويل سمي « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » ونقل الى معظم اللغات الاوربية

وقال العلامة ملطبرون انه خرج من لشبونه ببلاد الاندلس قبل كلمبس بزمن طويل جماعة من العرب يقال لهم المغروورون فركبوا البحر وجعلوا يبحثون عن اراض جديدة في الاتلانتيك ولكن الحظ لم يساعدهم كما ساعد كريستفورس كلمبس من بعدهم

فهذه الرحلات العظيمة مع سعة معارف العرب الفلكية سارت بعلم الجغرافية شوطاً بعيداً ومكنتهم من تصحيح أغلاط بطليموس وقياس البلاد قياساً دقيقاً ومعرفة مواقع المدن فيها

وأعظم علماء الجغرافية عند العرب هو الشريف الادريسي (٥٧٥ هـ) فقد أولع بالاسفار منذ نعومة اظفاره فجاب بلاد الروم واليونان ومصر ومراكش وفرنسا وبريطانيا ليرى بعينه ما سمع عنها فذاع ذكره في الآفاق وسمع به روجار الثاني ملك صقلية فدعاه اليه واقترح عليه ان يدوّن معارفه الجغرافية ففعل في كتاب سماه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وهو كتاب مستوعب لاطراف علم الجغرافية وقد اضاف الى معلوماته الخاصة ما دوّنه اسلافه جغرافيو العرب في مؤلفاتهم فترجم كتابه الى معظم اللغات

الاوربية ودرسه الافرنج في مدراسهم مدة ثلاثة قرون ومما يجدر ذكره ان الادريسي اصطنع للملك روجار كرة من فضة زنتها ١٤٤ اقة رسم فيها جميع اجزاء الارض



خريطة عربية للادريسي وفيها مخارج النيل

« منقولة عن ترجمة فرنسوية لكتابه الشهير »

وبحورها المعروفة رسماً دقيقاً وشرحها شرحاً وافياً اشار فيه الى وجوب وجود قارة اميركا حفظاً للتوازن في الكرة الارضية .

وقد عثرنا على خريطة للادريسي رسم فيها النيل ومخارجه وغير ذلك مما لم يعرفه الافرنج الا في القرون الاخيرة فنقلناها في هذا الكتاب لانها تدل على سعة معارف العرب الجغرافية وتفوقهم على جميع معاصريهم في هذا العلم

علم الفلك

كان علم الفلك مقروناً بالتنجيم في بدء الامر لاعتقاد العلماء بانهما فرعان لاصل واحد فلما ظهرت مدارس العرب غيرت الحال وخطت بعلم الفلك خطوة واسعة الى الامام واعظم تلك المدارس مدرسة بغداد ومدرسة القاهرة ومدارس اسبانيا . فمدرسة بغداد نشأت في اوائل خلافة العباسيين و بلغت ذروة المجد في عهد الرشيد والمأمون وقد رصد المأمون ميل دائرة البروج رصدين احدهما في بغداد تولاه يحيي بن ابي منصور وسند بن علي وعباس بن سعيد فوجدوا ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٥َ على ما رواه يونس و٢٣° ٣٢َ على ما رواه الفرغاني والثاني في دمشق تولاه خالد بن عبد الملك وسند ابن علي وابو الطيب وعلي بن عيسى الملقب بالاسطرلابي

فوجدوا الميل المذكور ٢٣° ٣٣َ ٥٢ً أي كما نعرفه اليوم تقريباً

وفي عصر المأمون قام ابناء شاكر محمد واحمد والحسن وكانوا من مشاهير علماء الفلك فرصدوا ميل دائرة البروج وحركة نقطتي الاعتدال وكان لهم مرصد على جسر بغداد فظهر لهم بالرصد هناك ان تكبد الشمس في المنقلب الشتوي سنة ٢٤٧ هـ كان على ٣٣° ٥َ ورصدوا في السنة التالية تكبدها في المنقلب الصيفي فكان على ٨٠° ١٥َ فاستخرجوا من ذلك ان عرض بغداد عند مرصد الجسر ٣٣° ٣٥َ وان ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٥َ ثم رصدوا قلب الاسد في سنة ٢٢٦ وسنة ٢٣٣ لتحقيق مبادرة الاعتدالين فتبين لهم انه في هذه الفترة تقدمت المبادرة ٢٥٦ً فتكون كميتها ٥٣َ ٥٤ً في السنة وهي اكثر من الحقيقة بثلاث ثوان ونصف ثانية تقريباً

وجاء بعد هؤلاء ثابت بن قرة الحراني فاستخرج حركة الشمس وحسب طول السنة النجمية ٣٥٦ يوماً و٦ ساعات و٩ دقائق و١٠ ثوان وميل دائرة البروج ٢٣° ٣٣َ ٣٠ً فقابله بما قبله فوجده يتغير على تمادي الاجيال وقد قال بحركة مستقيمة وأُخرى متقهقرة لنقطتي الاعتدال

ثم جاء محمد بن جابر بن سنان ابو عبد الله الحرّاني المعروف بالبتاني صاحب الزيج المعروف بالصابي اثبت فيه مواقع الكواكب لسنة ٢٩٩ وكان يرصد في رقة وموقعها على



ذات السمت

من آلات الرصد العربية

٣٦ من العرض الشمالي وفي انطاكية . ومن اعماله تصحيح حساب مبادرة الاعتدالين وقد جعلها درجة لكل ٦٦ سنة اي ٥٤ً و٣٢ً لكل سنة وهي اكثر من المتفق عليه اليوم

بأربع ثوان ونصف ثانية . وهو الذي كشف انتقال نقطتي الرأس والذنب ووضع للقمر معادلتين ورصد كسوفين وخسوفين وله مؤلف في ذلك ترجم الى اللاتينية ونسخته الاصلية بخط مؤلفه محفوظة في الفاتيكان الى اليوم

وممن اشتهر من علماء الفلك ابو محمد الخوكندي عاش نحو سنة ٣٨٣ للهجرة وحسب ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٢ً ٢١ً بربع أحد أضلاعه مقسوم ثواني

ومنهم ابو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفي الرازي ومن مصنفاته كتاب الصور السماوية وجدول لمطالع الثوابت وميلها ولهذا الجدول منزلة رفيعة عند علماء هذا العصر يرجعون اليه في مقابلة مواقع الكواكب وتحقيق حركاتها الى هذا اليوم

ومنهم ابو الحسن علي بن ابي سعيد بن يونس الصوفي من اهل القرن الرابع وهو صاحب الزيج الكبير المعروف بالزيج الحاكمي وهو اربع مجلدات . قال ابن خلكان لم أرَ في الازياج كلها اطول منه

ومنهم ابو عبد الله محمد بن جابر البتاني ويسميه الافرنج

الباتينوس عاش في اوائل القرن الرابع للهجرة وله من الاعمال العجيبة والارصاد المتقنة مايدل على غزارة فضله وسعة علمه وهو اول من استبدل اوتار القسي بالجيوب في قياس المثلثات والزوايا

ومن مشاهير علماء الفلك عند العرب ابو الوفا البوزجاني عاش في القرن الخامس للهجرة . ولم يظهر فضل هذا الفلكي العظيم الاّ في القرن الماضي فان المستشرق الفرنسوي الشهير العلامة سديو عثر على كتاب خطي قديم ابرزه للعالم واثبت به ان الاكتشافات الفلكية التي عزاها التاريخ الى علماء القرن السادس عشر اكتشفها ابو الوفا قبلهم بستة قرون وان علم الفلك عند العرب بلغ اقصى حد ممكن قبل اختراع التلسكوب وقد قال الدكتور غوستاف لبون ان آلات الرصد التي كان يستعملها ابو الوفاء كانت على جانب عظيم من الدقة والاتقان فانه رصد الميول بربع دائرة نصف قطرها ٢١ قدماً وذلك مالا يسهل على الفلكيين حتى في هذا العصر

ومن مشاهير المتأخرين ابو القاسم هبة الله بن الحسين

ابن يوسف وقيل احمد المنعوت بالبديع الاسطرلابي كان بارعاً في صنع آلات الفلكية — الاسطرلاب كلمة يونانية معناها ميزان النجوم — توفي سنة ٥٣٤. واتى بعده نصير الدين محمد بن حسن الطوسي من اهل القرن السابع للهجرة وهو صاحب الزيج المعروف بالخاني

ومن معاصريه عماد الدين ابو يحيي زكريا بن محمد الانصاري القزويني صاحب كتاب عجائب المخلوقات اتى فيه على الصور السماوية وأسماء البروج والمنازل مع أسماء أشهر الكواكب ومطالعها وكذلك فعل ألغ بك من بعده وهو آخر اساتذة المدرسة البغدادية

واشتهر غير هؤلاء كثيرون من علماء الهيئة في الشرق وقد كان معظمهم في عهد الدولة العباسية . اما في الغرب فأشهر من يذكر من الاندلسيين ابراهيم بن ازراحيل الاسرائيلي من اهل طليطلة من رجال القرن الخامس للهجرة وهو صاحب الازياج الطليطلية ومما يؤثر عنه انه باشر عدة رصود لتحقيق نقطتي الرأس والذنب من فلك

الارض وتحرير مقدار المبادرة السنوية وقد ظهر له ان مدة المبادرة تكون ما بين ٤٩ ½ و٥٠ً في السنة وهو قريب مما حققه المتأخرون

ومنهم مسلمة المجريطي المعاصر للمنجم المعروف بابن



مرصد فلكي عربي وفيه آلات الرصد

راجل ألف مختصر أزياج البتاني . وابن ابي طلحة الذي عمل في ثلاثين سنة ارصاداً مشهورة بالصحة

ومنهم ابو القاسم اصبغ بن السمح وكان بارعاً في الفلك والهندسة وله زيج على مذهب الهند المعروف بالهندسند

ومنهم ابو القاسم بن الصفار وابو مسلم بن خلدون ومحمد بن رشد القرطبي الفيلسوف الشهير وهو اول من رأى كلف الشمس وكتب عنها

والعرب هم اول من قالوا بابطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم ومالوا بعلم النجوم الى الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء وغيره من العلوم وكان لهم شغف بعلم الفلك ورصد النجوم وتأليف الازياج وقياس العروض ومراقبة السيارات

وكانت آلات الرصد متقنة عندهم وأهمها اللبنة وهي جسم مستوٍ مربع يعلم به الميل الفلكي وابعاد الكواكب والحلقة الاعتدالية ويعلم بها التحويل الاعتداليّ وذات الاوتار وهي اربع اسطوانات مربعة يعلم بها تحويل الميل وذات الحلق وهي أعظم الآلات وأتقنها وذات السمت ويعلم بها السمت وارتفاعه وذات الشعبتين ويعلم بها الارتفاع والمشتبه بالناطق لمعرفة المسافة بين كوكبين والاسطرلاب وهو على انواع كثيرة . ومعظم هذه الآلات من اختراعات العرب

وقد رصد العرب حركة الشمس في الاوج وعينوا مركز الشمس في فلك الارض وتقهقر الاعتدالين تعييناً دقيقاً واكتشفوا النقص المستمر في انحراف سمت الشمس والاضطرابات التي تعرض للقمر وهو في عرضه الاقصى



اسطرلاب عربي

واضطرابات السيارات في أفلاكها وعينوا الشكل الحقيقي لافلاك السيارات المعروف بفلك كبلر وأبدوا في حساب سير القمر اختلافاً ثالثاً لم يعرفه الافرنج الا في القرن السادس عشر

ورأوا السفع على سطح الشمس وبينوا نقطة الذنب للارض وأصلحوا قيمة مبادرة الاعتدالين وقيمة ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء وكانوا أول من استخدم الجيوب والاوتار في قياس المثلثات والزوايا . ولتيوفيل الرهاوي [1] رئيس منجمي المهدي وغيره من العلماء أعمال عظيمة في هذا الشان

وقد أطراهم العلامة بيلي وهو من مشاهير علماء الهيئة من الافرنج أعظم اطراء ولم يكتف بان جعلهم حياة العلم في أوربا بل قال لولا كتاب نور الدين في الكرة ما تمكن كبلر من اكتشاف الحكم الاول من احكامه الثلاثة الشهيرة وهي اهليلجية افلاك السيارات ولولا زيوجهم في السيارات والثوابت لم يكن زيج الفونسو الاسبانيولي الذي قام عليه علم الفلك في اوربا

علم الازياج — ومن فروع علم الفلك علم الازياج وهو علم حسابي على قوانين عددية في ما يخص كل كوكب من

---

(١) قال ابن العبري وكان تيوفيل على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان وله تاريخ حسن ونقل كتابي هوميروس الشاعر على فتح ايليون . بغاية ما يمكن من الفصاحة

طريق حركته وما أدى اليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة و بطء واستقامة و رجوع وغير ذلك مما تعرف به مواقع الكواكب في أفلاكها لأي وقت فرض

وأطول الازياج التي وضعها العرب الزيج الحاكمي كتبه ابن يونس في اربع مجلدات . ومن أشهر الازياج زيج الفزاري صاحب المنصور وأزياج الخوارزمي وأبي معشر البلخي وأبي السمح الغرناطي وأبي حماد الاندلسي والزيج الايلخاني لنصير الدين الطوسي وزيج ابن الشاطر الانصاري وغيرها

الطب عند العرب

وجد الطب قديماً عند العرب واشتهر أطباء عديدون في الجاهلية منهم لقمان بن عاد بن لجين بن عوص بن ارام بن سام ومنهم ابن حذيم من تيم الرباب ويضرب المثل بمعارفه الطبية فيقال فلان أطب من ابن حذيم ومنهم الحارث بن كلدة الثقفي الطائفي رحل الى أرض فارس وأخذ الطب عن اهل جنديسابور ومن أقواله «من سرّه البقاء ولا بقاء فليباكر الغذاء وليخفف الرداء وليقمع الاهواء» ويليه ابنه النضر وقد قتل عقب وقعة بدر

وكان أول من اهتم بالطب بعد الاسلام مروان بن الحكم رابع خلفاء بني أمية وكان طبيبه ماسرجويه البصري من أفاضل العلماء في ذلك الحين فعرب له كتاب اهرون الاسكندري المعروف بالكناش وهو أول كتاب في الطب نقل الى العربية وجاء بعده الوليد بن عبد الملك فزاد هذا العلم تعزيزاً وبنى دوراً للمرضى وجعل فيها الاطباء والممرضين وأجرى عليهم الارزاق

وارتقى فن الطب في عهد العباسيين ارتقاء باهراً . وأول من عني به المنصور ثاني خلفائهم . فقد استقدم جرجيس ابن بختيشوع النسطوري (١٥٣ هـ) وكان أشهر أطباء زمانه فكلفه تعريب كتب كثيرة في الطب عن الفارسية . وتلاه ابنه بختيشوع (١٨٢ هـ) وكان طبيب الرشيد ، وبقي بعده الى ايام المتوكل وممن نبغ في الطب يوحنا بن ماسويه (٢٤٣ هـ) صاحب التصانيف المشهورة ، منها اكثر من ثلاثين كتاباً في تحضير الادوية ، ورسائل جمة في انواع الأغذية والنزلات والحميات وأنواع الصداع والشقيقة ككتاب الحميات وكتاب الفصد والحجامة وكتاب الجذام

وكتاب الاغذية وكتاب المعدة وكتاب المسهلات

وقد ترجم كثير من مؤلفاته الى العبرانيـة وفي دور الـكتب الاوربية نسخ كثيرة منها

وخلفه تلميذه حنين بن اسحاق العبادي فعرب كتب



يوحنا بن ماسويه

ابقراط وجالينوس وأفلاطون وأخـذ من المأمون عن كل كتاب عرّبه زنته ذهباً

وخلف بختيشوعَ ابنه جبرائيلُ ثم جرجيس أخوه ثم

بختيشوع بن يحيي وكان طبيب المقتدر واستمرت اعقابهم في دولة بني العباس الى سنة ٤٥٠ للهجرة فأقاموا على التدريس في مدارس بغداد والتطبيب في المستشفيات فيها ولهم كتب عديدة لا مجال الى ذكرها الآن . وكان عدد الاطباء عظيماً جداً قيل ان عدد الذين امتحنوا لنيل الاذن بالتطبيب في عهد المقتدر ٨٦٠ طبيباً في بغداد وحدها ماعدا الذين استثنوا من تقديم الامتحان لشهرتهم . أما عدد تلامذة الطب في بغداد فبلغ ستة آلاف طالب في تلك الاثناء

وكان للاطباء نظام حسن عند العرب ولهم رئيس يمتحنهم ويجيز التطبيب لمن يرى فيه الكفاية . ومن أشهر هؤلاء الرؤساء سنان بن ثابت (٣٣١ هـ) في بغداد ومهذب الدين الدخوار في مصر . ويقال مثل ذلك عن الصيادلة فقد كانوا يجوزون الامتحان وينال الناجح منهم جوازاً بممارسة الصيدلة ويمنع الساقط من ذلك

وكان الاطباء طبقات ففيهم الطبيب على اجماله والجراح والفاصد والكحال أو طبيب العيون والاسناني وطبيب النساء وطبيب المجانين على مثال الاختصاصيين الذين نراهم

اليوم في اوربا

ومن اشهر اطباء العرب غير من تقدم ذكرهم قسطا بن لوقا وثابت بن قرة وعلي بن عباس المجوسي الاهوازي صاحب كتاب الكامل وأبو الحسن هبة الله بن صاعد وكان قسيسا ببغداد ايام المقتفي لامر الله قيل انه لم يكن مثله بعد ابقراط وجالينوس . ومنهم أوحد الزمان ابو البركات هبة الله بن علي البلدي وأمين الدولة هبة الله بن صاعد بن ابراهيم بن التاميذ

ولا مشاحة في ان العرب استفادوا كثيراً من كتب اليونان الطبية التي عربوها ونشروها في العالم ولكنهم لم يقتصروا عليها بل جمعوا بين طب اليونان والفرس والهند والعرب الاقدمين وأضافوا اليها كثيراً من نتائج اختبارهم وثمار قرائحهم فقد احدثوا في الطب آراء جديدة تناقض آراء المتقدمين ، منها المعالجة بالماء البارد وأول من فطن الى هذه الطريقة الشيخ ابو منصور صاعد بن بشر رئيس المرستان العضلي

ومنها استعمال المرقد (البنج) واستخدام الكاويات في الجراحة على نحو استخدامها اليوم ووصف علاج اليرقان

والهواء الاصفر واستعمال الافيون بمقدار كبير لمعالجة الجنون ووصف الماء البارد لقطع النزف ومعالجة خلع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة وعملية تفتيت الحصاة وغيرها

وقد اوضح العرب تشخيص بعض الحميات النفاطية كالجدري والحصبة والحمى القرمزية وزادوا في الصيدلة فكانوا اوّل من اشتغل بصناعة التخمير واستقطار المياه والزيوت واوّل من استخدم مركبات الزئبق في الامراض الجلدية ولا سيما البرص واوّل من أشار باستعمال المن والسنا والتمر الهندي والروند والكافور واوّل من وصف اللقاح في معالجة الجدري

وأشهر من اشتغل من أطبائهم بوصف الامراض ابو بكر محمد بن زكريا الرازي (٣١١ هـ) الملقب بجالينوس العرب ويسميه الافرنج « رازس » وله كتاب الاقطاب في ثلاثين مجلداً وكتاب الحاوي في ١٥ مجلدا وغيرهما وله رسالة في البردي والحصبة وهو الذى اخترع الخلال المعروف عند الاطباء .

وجاء بعده ابن سينا فبسط ماذكره الرازي في كتاب

الحاوي وزاد عليه في كتابه القانون الذي كان يعول عليه في آفاق الشرق عامة ثم انتشر في أوربا وطبع في روميه مع كتاب النجاة سنة ١٥٩٣ وبقي متداولاً في جميع مدارس أوربا نحواً من ستة قرون بعد ما ترجم الى معظم لغاتها.



مدرسة في الاندلس

هذا في بلاد المشرق وأما في المغرب فكان في الاندلس اربع مدارس للطب احداها في قرطبه والثانية في اشبيلية والثالثة في طليطلة والرابعة في مرسيه

وممن نبغ من الاندلسيين ابو القاسم الزهراوي من

أهل القرن الخامس كان طبيباً جراحاً له عدة تصانيف منها كتاب في امراض النساء وآخر في الجراحة وكتاب في تركيب الادوية



فردريك الثاني وحوله الاطباء والعلماء من العرب

ومنهم بنو زهر وهم في الغرب أشبه ببني بختيشوع في الشرق وأشهرهم أبو العلاء بن زهر بن أبي مروان ثم ابنه

ابو مروان عبـد الملك بن ابي العلا ثم ابنه ابو بكر محمـد بن مروان . وعبد الملك هذا هو أحد الذين أخذ عنهم ابن رشد الفيلسـوف الطبيب الشهير وهو صاحب كتاب التيسـير وكتاب الاغذية وكانت لهذين الـكتابين شهرة عظيمة في الشرق والغرب .

ومنهم أبو الوليد محمد بن رشد الشهير وقد تقدم ذكره والوزير ابوالمطرف عبدالرحمن بن شهيد مصنف الادويةالمفردة وابو عبد الله محمد بن معمر المالقي وهو صاحب عدة تآليف ومنهم ابن البيطار ضيا الدين ابومحمد عبد الله بن احمد المالقي وهو صاحب كتاب المفردات المشهور ذكر في نفح الطيب ان ابن البيطار كان اوحد اهل زمانه في معرفة النباتات سافر الى بلاد الاغارقة واقصى بلاد الروم والمغرب وعاين منابتها وتحققها وله فيها عدة تصانيف تدل على غزارة فضله

ومن معاصريه ابن نفيس علي بن أبي الحزم القرشي صاحب كتاب الشامل في مئة مجلد وابو عباس الاشبيلي وله كتاب في الادوية المقررة ومنهم غـير هؤلاء كثيرون يضيق المقام عن تعدادهم . وقد اخذ الايطاليون عنهم علم

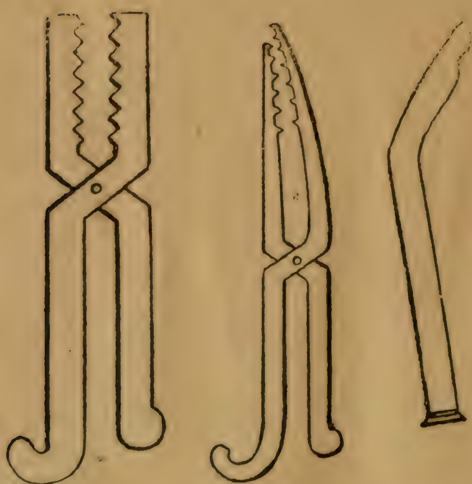
الطب وأنشأوا مدرسة سالرنو التي نقلت الطب الى اوربا

ونبغ جماعة من النساء مارسن الطب عند العرب منهن اخت الحفيد بن زهر الاندلسي وابنتها فقد كانت لهما خبرة عظيمة بالطب وكانتا تطببان نساء المنصور الاندلسي واهله وحاشيته. وقد اشتهرت زينب طبيبة بني أود في الشام في عهد الامويين وكانت جامعة بين الطب والجراحة وذكر الشيخ الرئيس ابن سينا في طب العيون قطرة ركبتها له امرأة خبيرة بصناعة الطب

الجراحة عند العرب

أخذ العرب الجراحة عن اليونان وتوسعوا بها وزادوا عليها ثمار اختباراتهم الطويلة وأول من جمع بين الطب والجراحة منهم مروان بن عبد الملك بن زهر وكان مشهوراً في معالجة الكسر والخلع واقتدى به اطباء الاندلس فاشتهر منهم ابوالقاسم الزهراوي (٥٠٠هـ) والافرنج يسمونه «البوكازيس» وكان بارعاً في بتر الاعضاء واستخراج ما يعرض في الحلق من الاجسام المبتلعة واستعمال الكي بالحديد وله مصنف

شهير سماه « التصريف لمن عجز عن التأليف » وجعله على قسمين الطب النظري والطب العملي وهو الجراحة . وقد ترجم كتابه هذا الى معظم اللغات وكان للقسم الجراحي منه شأن عظيم في أوربا .



ادوات لقلع الاسنان عند العرب

وقد اشار ابو القاسم الزهراوي بالكي لاكثر الامراض الموضعية واشتغل بفن التوليد واخترع البرونج وهو آلة تستعمل في أمراض البلعوم والمريء واخترع آلة أخرى لمعالجة الناصور الدمعي وكان بارعاً في خياطة شفار

الجراحات بالامعاء .

جاء في تاريخ الآداب بفرنسا ان أبا القاسم هـذا هو الطبيب الاندلسي المشهور الذي يعد الزعيم الاكبر للعلوم الطبية وذكره جوي ده شولياك اكثر من مئتي مرة وقال فبريس دكا بندانتي انه يعد المثل الاعلى للعلم وقال بوستال انه اول من استعمل السنارة في استخراج البوليبوس وقال فرند انه محيي الجراحة وقال هولز انه اول من ربط الشرايين قبل امبراوز باريه

وكانت آلات الجراحة عند العرب لا تقل عن مئة آلة للكي والشرط والبتر وكانوا يقطعون النزيف بالكي أو بالربط أو بوضع الرفائد أو بالضغط بالاصبع أو بالماء البارد وكل هذه مستعملة الى الآن

وكان أبو القاسم أول من ربط الشرايين كما تقدم وقد وصف هذه العملية كما يأتي :

« اسلخ الجلد برفق حتى تصل الى الشريان ثم تلقي فيه صنارة وتجذبه الى فوق حتى تخلصه من الصفاقات التي تحته من كل جانب فان كان الشريان رقيقاً تلويه بطرف الصنارة

ثم تقطع منه جزءاً بقدر ما يتباعد طرفاه ولا يحدث نزيفا فانه اذا بتر وانقطع لم ينزف الدم ثم استفرغ من الدم من ٣ الى ٦ اواق »

وقد اجمع المؤرخون على ان النساء أيضاً كن يعملن كثيراً من العمليات الجراحية لبنات جنسهن وهو امر لم تتوفق نساء اوربا اليه الا في الزمن الاخير

وقد نبغ من العرب كثيرون في الجراحة منهم الامام ابو بكر الرازى (٣١١ هـ) وصف ريح العظام واستسقاء العمود المعروف في اللاتينية بسبينا بيفيدا وكان يداوي الجراح الناشئة عن عض الحيوانات الكلبة بالكي وقد قال بعدم استعمال السكين في السرطان الا اذا كان منحصراً في موضع يمكن فيه استئصاله بالكلية وشرح لمعالجة الفتق طرقاً راقية

واشتغل ابن سينا بالجراحة واخترع القاثاتير القابل اللي وكانت لابن زهر شهرة واسعة في هذا الفن وقد الف فيه رسائل عديدة وكذلك ابن رشد فله آثار عظيمة في الجراحة .

ومن مشاهير الجراحين العرب أبو الحسين بن نفاخ

الجراح الشهير اختاره عضد الدولة للبيمارستان ببغداد وجعله رفيقاً لابي الحسن الجراح وكان كل منهما موصوفاً بالحذق في الجراحة وكذلك أبو الخير بن أبي الفرج وغيرهم

وخلاصة القول ان فضل العرب على الطب والتشريح والجراحة عظيم جداً وقد أخذها الايطاليون عنهم وأنشأوا مدرسة سالرنو التي كانت صلة الوصل بين علوم العرب والعلوم العصرية

الصيدلة

كان العرب اوّل من اشتغل في تحضير الادوية فضلاً عما كشفوه من العقاقير الجديدة وهم اول من ألف الاقرباذين على الصورة التي وصلت الينا . وكان صيادلة العرب يعتمدون على اقرباذين ألفه سابور بن سهل المتوفي سنة ٢٥٥ ھ . حتى ظهر اقرباذين امين الدولة المتوفي سنة ٥٦٠ ھ

وقد اخترع العرب جملة أدوية لم تزل مستعملة الى الآن كالكحول واللعوق والجلات والشراب والكافور وزيت النفط والعطر وغير ذلك وهم اول من اخترع السوافات

لتذويب الاصول الفعالة في الادوية سواء كانت معدنية او نباتية او حيوانية واخترعوا الانبيق والتقطير والتسامي ووضعوا قانوناً للاقراباذين يوجب ترخيص الحكومة بالتراكيب الخاصة من الادوية . وكانت مصنفات ابن سينا دستور الصيادلة في اعمالهم الى ان ظهر كتاب ابن التلميذ فجرى عليه صيادلة القرن السابع للهجرة

ثم اشتهرت تراكيب ابن رشد وكان قد اخترع جملة اشربة ومعاجين ومربيات . وتدل تآليفه على انه مهر جداً في درس العقاقير وبحث في اصولها الفعّالة ووجد عدة خلاصات وجهّز عدة صفات خلّية ونبيذية وكحولية وعدة زيوت طبية

وذكر الرازي في كتابهِ الرهج الاصفر والاحمر والبورق واستعمل الكحول لاذابة عدة مستحضرات اقراباذينية وكان يستعمل الحديد والكبريت والنحاس والزئبق والانتيمونيا وغيرها

والعرب هم اول من عرف خواص اكثر الجواهر الطبية ولم يتركوا نوعاً من المعادن او النبات الا درسوا خصائصه

وعرفوا فوائده فاستعملوه في تراكيبهم وأفادوا علم الطب فائدة اختمرت مع الزمن وبلغت اليوم ما نراه في اوربا من النضج والتقدم .

وقد ذكر محققو الافرنج ان العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة (الحامض النتريك) وزيت الزاج (الحامض النيتروهيدروكلوريك) واكتشفوا البوتاسا وروح النشادر وملحه وحجر جهنم (نترات الفضة) والسليماني والراسب الاحمر واكسيد الزئبق وملح الطرطير وملح البارود (نترات البوتاسا) والزاج الاخضر (كبريتات الحديد) والكحول والفصفور والقلي والزرنيخ والبورق وغيرها

علم التشريح

ان من نظر الى الكتب التي ألفها العرب في بيان خلق الانسان وما حواه بدن كل حيوان من الاعصاب والعظام واللحم ووظيفة كل منها يعلم يقيناً ان العرب نبغوا في علم التشريح . والكتب التي ألفوها في خلق الانسان كثيرة اهمها كتاب خلق الانسان للامام اللغوي ابي عبد الله محمد

ابن عبد الله الخطيب الاسكافي حوى وصف حياة الانسان في جميع أدوارها من حين يولد الى حين يهرم ويموت وبيان وظائف اعضائه وأوصافها كالرأس وما تركب منه والشعر وأقسامه وألوانه والاسنان وعددها وأوصافها ومنابتها واللسان



تشريح العين

« من كتاب تشريح العين لحنين بن اسحق »

وما اشتمل عليه من الاجزاء والعظام التي في أسفله والحلق وما فيه من الغدد والحنجرة والبلعوم واللحية وأسماء أجزائها وأقسامها وألوانها وسائر أوصافها والعنق وما تركب منه

والمنكب والكتف وما اشتملا عليه واليد وما تركبت منه من العظام والاعصاب والعضلات والعروق مع أسماء كل منها والاصابع وأسمائها وأجزائها والظفر وأقسامه وأسمائها . والصدر وما تركب منه والثديان وما فيهما والجنبان وعدد اضلاعهما وأسمائها وما يلحق ذلك والبطن وما حوى والجوف وما فيه كالقلب والكبد والطحال والرئة والكليتين والمصارين والامعاء والاعفاج والحشى والكرش وما في هذه الاقسام من الاجزاء وأدوات البطن وما لها من الاسماء والظهر وما تركب منه من العظام والعصب والعروق . والركب وما تكونت منه وأعضاء التناسل في الرجل والمرأة والاطراف كالأيدي والأرجل وما فيها من الاعصاب حتى الدقيق منها واستشهد على ما أثبته بالشعر الجاهلي وهذا ما لا يدع مجالاً للريب في ان للعرب قدماً راسخة في علم التشريح ولولا ذلك لما تمكنوا من الوقوف على دقائق الجسم ووصف أعضائه ولا سيما القلب وما في تركيبه من الدقة وهو ما لا يتأتى الا لقوم اختبروا هذا العلم جيداً ومارسوه طويلاً

علم حفظ الصحة

اهتم العرب بعلم حفظ الصحة اهتماماً عظيماً حتى في الجاهلية لعلمهم انه اكبر دافع للامراض التي يعجز الطب عن شفائها ثم جاء الاسلام بقوانينه ونظاماته الصحية المدهشة فحول أنظار الاطباء الى هذا العلم والى فوائده العديدة فساروا به شوطاً بعيداً الى الامام . ولا ريب في ان العرب هم واضعو علم حفظ الصحة وقد جمعت أمثالهم وأشعارهم أعظم النصائح الصحية التي قام عليها علم « الهيجين » في هذا العصر .

وقال الدكتور غستاف لبون ان مستشفيات العرب كانت من الوجهة الصحية أفضل من مستشفيات الاوربيين اليوم بسعتها وجمال موقعها ونظافتها وكثرة مياهها وطلاقتها للهواء فان أبا بكر الرازي لما كلف انتقاء الموضع الذي يبنى فيه المرستان ببغداد أمر غلمانه ان يعلقوا في كل ناحية من المدينة قطعة لحم ثم أشار ببناء المرستان في الناحية التي لم يتغير فيها اللحم ولم يفسد

وكانت المستشفيات في عهد العرب معدة لمعالجة المرضى وتدريس الطب في آن واحد كما هي الحالة اليوم وكانت على أنواع مختلفة فمنها ما هو خاص بالامراض المعدية ومنها ما هو خاص بأمراض الجنون أو بغير ذلك . ثم ان جمعيات الاسعاف لم تكن مجهولة عند العرب كما ان الاطباء كانوا يداوون الفقراء مجاناً في ايام وساعات معينة

ولم يجهل العرب تأثير المناطق الحارة والمعتدلة في بعض الامراض فان ابن رشد كان يصف للمسلولين تغيير الهواء وقضاء بعض فصول السنة اما في جزيرة العرب او في جهات درنه بطرابلس الغرب كما ان أطباء اليوم يصفون تغيير الهواء في القطر المصري للمصابين بهذا الداء . ولا يخفى ان درنه ومصر في منطقة واحدة

وكان العرب يرون في مراعاة قوانين حفظ الصحة دواءً لكثير من الامراض . قال الدكتور غستاف لبون « وهذا الطب السلبي هو آخر ما اعتمده أطباء اليوم ولا ريبَ عندي في ان أطباء العرب في القرن العاشر للميلاد لم يفقدوا من مرضاهم اكثر مما يفقده أطباؤنا الحاليون »

البيطرة

هو علم يبحث فيه عن احوال الحيوانات الاهلية من حيث معالجة امراضها وحفظ صحتها والاعتناء بها وقد كان العرب يهتمون بهذا العلم اهتمامهم بالخيل وكان محصوراً عندهم في معالجتها ثم عمّ حتى صار يعرف بطب الحيوان أي انه شمل الحيوانات التي يستخدمونها والطيور والزحافات والاسماك وهو ما يسمى بالزردقة

وقد أخذوا هذا العلم اولاً عن مصنفات ارسطو وابقراط ثم توسعوا بالبحث في تشريح الحيوانات ووصفوا عدة امراض في الخيل والبقر والحمير حتى الطيور والاسماك ونضج هذا العلم في القرن السابع اذ فصل عن علم الطب وأصبح علماً قائماً بذاته واشتغل به كثيرون من اطباء العرب اشهرهم ابو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الاسكافي

وقد ظل هذا الفن يتقدم عندهم بتقدم الطب لان بنية الحيوان كبنيـة الانسان من حيث نموّها وصحتها وتعرضها للامراض وحاجتهـا الى العناية الى ان بلغوا

فيه شأواً بعيداً وقد ألفوا فيه كتباً عديدة لا تزال مرجعاً لعلماء هذا العصر

الكيميا

لا خلاف في ان العرب هم الذين أسسوا الكيميا الحديثة بتجاربهم ومستحضراتهم التي لا تزال أساساً لاعمال الكيماويين في هذا العصر . فقد أثبت محققو الافرنج ان العرب هم الذين اكتشفوا الجواهر التي تعد من أعظم أركان علم الكيميا كالكحول وماء الفضة (الحامض الازوتيك) وزيت الزاج (الحامض الكبريتيك) وماء الذهب (الحامض النيترو هيدروكلوريك) والبوتاسا وروح النشادر وملحه ونترات الفضة (حجر جهنم) والسليماني (كلوريد الزئبق) والراسب الاحمر (اكسيد الزئبق) وملح الطرطير وملح البارود (نترات البوتاسا) والزاج الاخضر (كبريتات الحديد) والقلي والبورق والزرنيخ والبارود وغير ذلك مما لم يصل الينا خبره ووصف ابن الاثير أدوية استخدمها العرب في وقعة الزنج سنة ٢٦٩ ﻫ اذا طلي بها الخشب لم تعمل فيه النار

والعرب أول من اشتغل بمزج المعادن وطرقها واول من وصف التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور والتذويب والتسامي والتكليس . وهم الذين اخترعوا البارود واستخدموه في قذف القنابل وصنع الالغام وكانوا يسمونه الملح الهندي وقد استعملوه في حربهم مع الاسبان سنة ١٢٤٩ ثم استعمله صاحب غرناطه في حصار باجه سنة ١٣١٢ و١٣٢٥ اما الافرنج فقد أخذوه عن العرب واستعملوه لاول مرة في معركة كراسية سنة ١٣٤٦ للميلاد

وأول من اشتغل بعلم الكيميا من العرب خالد بن يزيد وعنه أخذ جابر بن حيان ثم الكندي وأبو بكر الرازي وغيرهما ولم يطل بحث العرب في الكيميا حتى جعلوها فناً بقواعد وأصول كما جعلوا علم الفلك فناً مقرراً صادقاً على أثر التنجيم الوهمي الكاذب وأول اكتشافاتهم الكيماوية ان احماء بعض الاجسام كملح البارود يطير منها شيئاً غير منظور يجمع في الاوعية كسائر الاجسام ويحصر فيها بسد المنافذ عليه واذا ادني منه ضوء فقع فقعاً شديداً ومزق الاوعية التي هو فيها وقد سموه روحاً وهو يسمى الآن غازاً والغاز كلمة جرمانية

« Geist » معناها الروح فطابقت تسميتهم له لتسمية الافرنج وقد اخترعوا البارود على ما تقدم وقالوا في طريقة تركيبه « اذا مزجت أوقية من الكبريت بأوقيتين من الفحم وست أواقي من ملح البارود وأشعلتها فقعت فقعاً شديداً وطيرت ما يعترض امامها » وهذه الطريقة لا تزال مستعملة لعمل البارود الى الآن

وأشهر الكيماويين عند العرب جابر بن حيان وقد أطلق اسمه على علم الكيميا فيقال علم جابر وله فيه سبعون رسالة ترجمت الى اللغات الاجنبية وكانت تدرس في جميع مدارس اوربا. وقد شهد له بالفضل الرازي وابن سينا وغيرهما من المتقدمين ولقبه باكون الفيلسوف الانكليزي بمعلم المعلمين وعد العلامة كاردان الرياضي الشهير افراد العالم الذين امتازوا بالعقل والعلم على سائر البشر اثني عشر شخصاً حسب جابر واحداً منهم . وقد لقبه الافرنج بواضع الكيميا. فهو الذي اكتشف التقطير بقوله « اذا اغلي الماء صعد الروح (أي البخار) عنه واذا جمع هذا الروح في وعاء عاد سائلا خالصاً من الشوائب لان الاجسام الجامدة كالرمل والملح

لا تصعد مع الروح بل تبقى في الانبيق » وهو الذي اكتشف التصعيد بقوله « اذا وضعت حصاة من الكافور في زجاجة واسعة وسددت عليها وجدت حجمها يصغر من يوم الى يوم لان الكافور يتحول الى بخار على الحرارة الاعتيادية فتلطف أجزاؤه وتخف وتطير عنه بدون ان تذوب واذا أمعنت النظر في الزجاجة وجدت هذه الابخرة قد تجمعت على عنقها كالدموع الصغيرة » وقال « اذا أحمي الزنجفر يتصعد ويتطاير ومتى جمع وبرد يتحول الى زئبق » وجابر هذا هو الذي اكتشف روح الخمر وزيادة ثقل الاجسام بعد احمائها والحوامض القوية اذ لم يكن يعرف منها قبله الا الخل وكان أول من ذوّب الذهب واكتشف طريقة ترشيح السوائل وقال في طبيعة المعادن قولاً علمياً واخترع آلات كيماوية ومغاطس مائية ورملية وغيرها وهو الذي يعزي اليه اختراع الجبر

ويليه أبو بكر الرازي فهو الذي اكتشف الحامض الكبريتيك (زيت الزاج) واستحضره بتقطير الزاج وهو أوّل من استحضر الكحول بتقطير روح الخمر

واليه يعزي اكتشاف الفصفور والكلس ومسحوق الفحم

قال الدكتور غوستاف لبون ان العرب اكتشفوا مواداً كيماوية عديدة لولاها لما كانت الكيميا وعرفوا مزايا الغازات ووصفوها وصفاً تاماً وساروا بهذا العلم خطوات



العرب يستقطرون العقاقير

واسعة الى الامام وكانت تعاليمهم أساس الكيميا الحديثة

واشتهر من العرب كثيرون في علم الكيميا على ان تأليفهم فقدت كلها ولم يبق منها الا مؤلفات جابر والرازي وهي تكفي للدلالة على فضلهم وسعة معارفهم

وقد بلغت الكيميا الصناعية أقصى درجات الرقي في عهدهم ففاقوا جميع الامم التي تقدمتهم في فن التعدين والدهن وصنع الفولاذ والجلود وما شاكل ذلك . والفضل في ابطال



الرازي الكيماوي

الكيميا القديمة يعود اليهم وأول من قال بذلك منهم فيلسوفهم يعقوب الكندي في أواسط القرن الثالث للهجرة

الطبيعيات

الطبيعيات علم خصائص المادة ونواميسها سواء كانت المادة تقبل الوزن كالجوامد والسوائل والغازات أو لا تقبله كالحرارة وأشعة النور وما اشبه ذلك وهو يبحث في الحركة والقوة والسوائل والهوائيات والسمعيات والمرئيات والمغناطيسية والنور والحرارة ويشمل علم الآلات او الميكانيكيات . وقد كان للعرب القدح المعلى في هذا العلم ولكنهم أدمجوا مسائله في كتب الفلسفة والطب والكيميا والفلك الجغرافيه وغيرها فأوضحوا نواميس الحركة والحرارة وما يتولد عنها من حيوان وانسان ونبات ومعدن وزلازل وسحاب وأمطار ورعد وبرق وصواعق وغير ذلك . وذكروا اسباب تولد المد والجزر والبراكين والتيارات البحرية والغمر ووصفوا جميع الانقلابات التي تطرأ على الكرة الارضية وصفاً علمياً تاماً . قال المسعودي في تعليل تحول البحار يابسة « ليست مواضع الارض الرطبة أبداً رطبة ولا مواضع الارض اليابسة أبداً يابسة لكنها تتغير وتستحيل بعد الانهار والامطار

وطبعاً انه يستحيل موضع البر وموضع البحر فليس موضع البر أبداً براً ولا موضع البحر أبداً بحراً بل قد يكون براً حيث كان مرة بحراً ويكون بحراً حيث كان مرة براً » وهذا كل ما يقبله العلماء اليوم .

واشتغل قسطا بن لوقا البعلبكي بهذا العلم وله فيه كتاب المرايا المحرقة وكتاب المروحة وأسباب الريح

وبحث العرب في نواميس القوة والجاذبية بحثاً علمياً دقيقاً وعرفوا المغناطيس واستعملوا الحك واخذه الافرنج عنهم وعللوا مغناطيسية الارض تعليلاً مقبولاً واخترعوا بيت الابرة المغناطيسية واكتشفوا قوانين ثقل الاجسام مائعها وجامدها ووضعوا جداول لها في غاية الدقة وألفوا رسائل عديدة في السوائل والهوائيات والسمعيات والنور والحرارة جاء في نفح الطيب « ان ابن فرناس حكيم الاندلس صنع في بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود ... » وبلغ علم الميكانيكيات أقصى حد يرجى نيله فوضعوا الآلة المعروفة بالمثقال واخترعوا رقاص الساعة « البندول » الذي هو أساس معظم اختراعات هذا العصر

الطبيعيات

الطبيعيات علم خصائص المادة ونواميسها سواء كانت المادة تقبل الوزن كالجوامد والسوائل والغازات أو لا تقبله كالحرارة وأشعة النور وما اشبه ذلك وهو يبحث في الحركة والقوة والسوائل والهوائيات والسمعيات والمرئيات والمغناطيسية والنور والحرارة ويشمل علم الآلات او الميكانيكيات . وقد كان للعرب القدح المعلى في هذا العلم ولكنهم أدمجوا مسائله في كتب الفلسفة والطب والكيميا والفلك والجغرافية وغيرها فأوضحوا نواميس الحركة والحرارة وما يتولد عنها من حيوان وانسان ونبات ومعدن وزلازل وسحاب وبخار ورعد وبرق وصواعق وغير ذلك . وذكروا اسباباً معقولة للمد والجزر والبراكين والتيارات البحرية والغمرية ووصفوا جميع الانقلابات التي تطرأ على الكرة الارضية وصفاً علمياً تاماً . قال المسعودي في تعليل تحول البحار الى يابسة « ليست مواضع الارض الرطبة أبداً رطبة ولا مواضع الارض اليابسة أبداً يابسة لكنها تتغير وتستحيل بفعل الانهار والامطار

ولهذه العلة يستحيل موضع البر وموضع البحر فليس موضع البر أبداً براً ولا موضع البحر أبداً بحراً بل قد يكون براً حيث كان مرة بحراً ويكون بحراً حيث كان مرة براً » وهذا كل ما يقوله العلماء اليوم .

واشتغل قسطا بن لوقا البعلبكي بهذا العلم وله فيه كتاب المرايا المحرقة وكتاب المروحة وأسباب الريح

وبحث العرب في نواميس القوة والجاذبية بحثاً علمياً دقيقاً وعرفوا المغناطيس واستعملوا الحك واخذه الافرنج عنهم وعللوا مغناطيسة الارض تعليلاً مقبولاً واخترعوا بيت الابرة المغناطيسية واكتشفوا قوانين ثقل الاجسام مائعها وجامدها ووضعوا جداول لها في غاية الدقة وألفوا رسائل عديدة في السوائل والهوائيات والسمعيات والنور والحرارة جاء في نفح الطيب « ان ابن فرناس حكيم الاندلس صنع في بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود ... » وبلغ علم الميكانيكيات أقصى حد يرجى نيله فوضعوا الآلة المعروفة بالمثقال واخترعوا رقاص الساعة « البندول » الذي هو أساس معظم اختراعات هذا العصر

وكانوا يسمونه دقاقاً وكان طوله نحو متر ويخطو خطوة في كل ثانية اذ يقال انه كان يدق ٨٦٤٠٠ دقة في اليوم أي دقة واحدة كل ثانية وأنشأوا عدداً عظيماً من الآلات الصناعية والحربية والزراعية . قال أحد علماء الافرنج ان الآلات التي وصلت الينا من العرب على قلتها أبلغ برهان على تقدمهم العظيم في علم الميكانيكيات وان ما نقرأه في كتب الاقدمين عن وصف الساعة التي أهداها هرون الرشيد الى شرلمان وما ذكره بنيامين الطليطلي عن ساعة جامع دمشق لا يتركان مجالاً للريب في ما كان عليه هذا العلم من التقدم والارتقاء في عهد العرب

على ان كتب الطبيعيات التي وضعها العرب فقد معظمها وأهم ما وصل الينا منها مؤلفات الخازن الاندلسي الذي عاش في أواخر القرن الخامس للهجرة فقد ألف كتاباً في الفجر والشفق وعين ابتداء كل منهما وقت بلوغ الشمس ١٩ درجة تحت الأفق وحسب علو الهواء ٥٢٨ ١ ميلاً ومحيط الارض ٢٤ الف ميل وكتاباً آخر في البصريات جاء في سبعة مجلدات ترجمت كلها الى اللاتينية وطبعت في سنة

١٥٧٢ م وقد أوضح فيه انكسار شعاع الشمس في الهواء واستخرج مقدار الانكسار ووصف العين وصفاً علمياً وبحث في كيفية ادراك المرئيات بحاسة البصر وبرهن على ان رؤية الشيء هي شعور الدماغ بالمحسوسات الظاهرة بواسطة العصب البصري وعلل رؤية الاشباح مفردة مع ان صورتها ترتسم بعينين لا بعين واحدة وبسط فن الانكسار بسطاً شافياً واكتشف كثيراً من أحكامه منها انه يزيد في في ارتفاع الاجرام السموية ومنها انه يرينا الاجرام فوق الافق وهي تحته وانه يقصر أقطارها كثيراً وهو أول من عرف انكسار الاشعة الى العين وأول من ذكر مزية الزجاج في تكبير الاجرام بقوله « اذا وضعت مادة عند قاعدة زجاجة أكبر منها كبرت .. » فأدى ذلك الى اختراع النظارات وما شاكلها . قال الدكتور غستاف لبون ان كتاب الخازن هذا أفاد كبلر فائدة عظيمة في ابحاثه في البصريات وان فيه أموراً عظيمة الشأن عن المرايات ونواميس الانكسار وغيرها . وقال المسيو شازل وهو من اكبر علماء الطبيعيات في اوربا ان تعاليم الخازن هي أساس كل

ما نعرفه اليوم عن البصريات

وقد ألقى الدكتور بلتن في السنوات الاخيرة خطاباً في اكاديمية العلوم في نيويورك عن معرفة الثقل النوعي عند العرب ذكر فيه اقتباسات كثيرة من كتاب ميزان الحكمة للخارسيني تدل كلها على ان العرب كانوا يعرفون ثقل الهواء وطرق مدققة لاستخراج الثقل النوعي لاكثر السوائل والجوامد حتى التي تذوب في الماء وقال ان في الكتاب المذكور جداول مدوّن فيها الثقل النوعي كما هو معروف الآن وفيه رسم آلات كثيرة منها ميزان بديع الصنعة لمعرفة الثقل النوعي في جميع الاجسام

علم النبات

كان العرب واسعي الاطلاع في علم البنات ولا بدع فهم نشأوا في الغابات بين الرياحين والنباتات فعرفوا انواعها وفصائلها ومزاياها ثم نقلوا ما كتبه ديسقوريدس وجالينوس عنها وأدخلوا منها في الطب ما جهله اليونان كالراوند والتمر الهندي والخيار شنبر وورق السنامكي والاهليلج

والكافور وعرفوا انواع الطيب كجوز الطيب والقرنفل وذكر ابن سينا شجرة الارز المسماة ديودفارة النابتة في جبال همالايا وجعلها نوعاً من الشجر جونيپيريس الداخل في تركيب زيت التربنتينا

وكان كتاب ديسقوريدس في النبات اول كتاب نقل الى العربية نقله اصطفان بن باسيل في عهد المتوكل وقد ترك العقاقير التي لم يعرف لها إسماً بالعربية على لفظها اليوناني أملاً ان يأتي بعده من يعرف ذلك ويفسره . ثم أمر الناصر صاحب الاندلس بتصحيح تعريب كتاب ديسقوريدس وعهد في ذلك الى راهب اسمه نقولا والى نخبة من علماء الاندلس

وأشهر علماء النبات من العرب ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن احمد بن البيطار (٤٤٦ هـ) وقد أولع بعلم النبات منذ صباه فأخذ كتاب ديسقوريدس ودرسه ثم سافر الى بلاد الروم والشام ومصر فعاين النباتات في مواضعها واختبر خواصها ومزاياها وأوضح صفاتها ومنافعها وألف فيها كتباً عديدة اهمها كتاب « الجامع لمفردات الادوية والاغذية »

في اربعة اجزاء مرتبة على حروف المعجم استوفى فيه ماذكره سلفاؤه وما تحققه بنفسه وكتاب المغني في الادوية المفردة وكتاب ميزان الطب وغيرها

وقد كان ابن البيطار محققاً مدققاً جاب الاقطار وتوغل في الفيافي والقفار للوقوف على الحقائق فكشف انواعاً من النبات لم تكن معروفة من قبل وذكر اسماءها وفوائدها وأودعها كتابه الشهير الذي يعتبره الافرنج ابدع الكتب القديمة واكثرها تدقيقاً وضبطاً وقد عولوا عليه في نهضتهم الاخيرة في علم النبات

ومن مشاهير علماء النبات عند العرب ابو زكريا الاشبيلي صنف مؤلفاً في الزراعة والحراثة طبق فيه معارف العراقيين واليونانيين والرومانيين والافريقيين على الاندلس

وقد أنشأ عبد الرحمن الاول ملك قرطبة بستاناً جمع فيه عدداً لا يحصى من انواع النبات و بعث بارساليات الى الشام ومصر والعراق وسائر بلاد المشرق لجمع البذور النادرة

ومنهم رشيد الدين بن الصوري المتوفي سنة ٦٣٩ ﻫ وهو صاحب كتاب الادوية المفردة وقد كان كثير البحث

والتدقيق يخرج بنفسه لدرس الحشائش في منابتها ويستصحب مصوراً معه الاصباغ على اختلافها فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور فيصوره تصويراً دقيقاً وهذا غاية ما يفعله الباحثون اليوم في هذا العلم

وفي ايام المقتدر بالله العباسي نقل العرب الاترج المدوّر من الهند وزرعوه بعمان ثم نقلوه الى البصرة والعراق والشام قال ابن خلدون انه بعد ما كثر في الثغور الشامية وانطاكية ومصر عدمت منه الاراهج الطيبة واللون الحسن الذي كان فيه بأرض الهند لعدم ملاءمة الهواء والتربة

علم الحيوان

عني العرب بعلم الحيوان عنايتهم بسائر العلوم وأنشأوا فيه مؤلفات نفيسة أتوا فيها على ذكر كل نوع من أنواع الحيوانات والحشرات والطيور ووصفوها وصفاً دقيقاً وذكروا أسماءها وأشكالها وصفاتها وطبائعها

وقد اخذ العرب هذا العلم عن ارسطو ثم توسعوا فيه وجاء الامام زكريا بن محمد بن محمود القزويني ففاق

جميع الذين تقدموه في علم الحيوان وألف كتاب « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » وهو من أنفس الكتب وقد جاء فيه عن الاجسام المتولدة « هذه الاجسام اما ان تكون نامية اولم تكن فان لم تكن فهي المعدنيات وان كانت نامية فاما أن تكون لها قوة الحس والحركة اولم تكن فان لم تكن فهي النبات وان كانت فهي الحيوان » وبعد ان تكلم عن النبات والمعادن بحث في الحيوان وجعل الانسان في المرتبة الاولى منه وألم بكيفية تولده ثم نظر في تشريح اعضائه وتتبع وصف الحيوانات فذكرها في مراتب الدواب فالنعم فالسباع فالبهيمة فالطير فالهوام والحشرات وقد جرى في وصف انواعها على ترتيب حروف المعجم

وأبلغ مؤلف في هذا العلم للعلامة محمد بن احمد الوراق لما حواه من دقة الوصف وحسن البيان فقد بدأ بذكر الانسان ووصف النفس واستتلى بوصف ذي الناب وختمه بذكر طبائع حيوان البحر والمشترك

ومن المؤلفات العربية في هذا الباب « كتاب مسالك الابصار في اخبار ملوك الامصار » لشهاب الدين احمد بن

يحيي بن محمد الكرماني العمري المعروف بابن فضل الله الكاتب الدمشقي المتوفي سنة ٧٤٩ هـ جعله على قسمين الاول في الارض والثاني في سكان الارض وقد استوفى في الجزء الثاني ذكر الحيوانات المعروفة ومنافع أجزائها في العلاج وأبدع ما اشتمل عليه وصف النباتات مع صورها بالالوان التي تحاكيها في الحالة الطبيعية

وأشهر مؤلف وضعه العرب في علم الحيوان «كتاب حياة الحيوان الكبرى» لكمال الدين الدميري الملقب «ببوفون العرب» فقد تتبع فيه ذكر الحيوانات على حروف المعجم ووصف كل حيوان على حدة وذكر اسمه وما جاء في الحديث والاشعار والامثال عن خصاله ومزاياه وتكلم عن كثير من الحيوانات التي لم يكن يعرفها احد قبله فأحرز شهرة كبيرة في هذا العلم ونقل كتابه الى معظم اللغات الاجنبية واختصره كثيرون من الكتاب وكان له شأن عظيم في اوربا

وقد ترك العرب كتباً عديدة أخرى في علم الحيوان نذكر منها كتاب عين الحياة ومنه نسخة في برلين ومختصر

لابن قاضي شهبه منه نسخة في اكسفورد ومختصر للسيوطي اسمه ديوان الحيوان ومختصر لمحمد بن عبد القادر الدميري اسمه « حاوي الحسان » ومنه نسخة في باريس ومؤلفات اخرى كثيرة فقد معظمها اما البقية الباقية منها فموجودة في مكاتب اوربا وقد حرم العرب منها وانتفع بها الاوربيون فشادوا عليها دولة علومهم ورصعوا بدرر نفائسها جيد حضارتهم

علم طبقات الارض

هو علم يبحث في تركيب الارض وترتيب موادها وينطوي تحته مبحثان يتعلق احدهما بالنواميس الكيماوية والطبيعية والفسيولوجية التي جرت عليها الكرة الارضية في نموها والآخر بتاريخ الارض الطبيعي مأخوذاً عن طبقاتها ومعادنها وحفرياتها

وقد عني العرب عناية خاصة بهذا العلم فجزموا باستدارة الارض وعينوا قياس دائرتها وطول قطرها واستقصوا البحث في تركيب اليابسة واختلاف طبقاتها واستخرجوا

المعادن ودرسوا صفاتها وبحثوا في الاحافير وأسباب وجودها وتكلموا عن المياه الكامنة في الارض وكيفية اظهارها وألفوا كتباً عديدة في انواع التربة وما تصلح له من الزرع ومهدوا السبل لمعظم الاكتشافات العلمية في هذا العصر ووضعوا اساس علم الجيولوجيا الحديث . قال ابن رشد في كلامه عن الجبال واسباب ظهورها ما خلاصته « إما أن تنشأ الجبال عن زلازل عظيمة تغير وجه البسيطة تغييراً فجائياً او ان تحدث بفعل الماء الجاري في ادوار يتألف كل دور منها من ألوف كثيرة من القرون » قال : « والمعادن والجبال نتيجة عوامل واحدة أتت بها أبدية الزمان ولا يستطيع المرء ان يرى شيئاً منها في حياته القصيرة . ولا يبعد أن تكون الجبال اليوم آخذة في الزوال تدريجاً بفعل الماء والريح . على اننا لا ندرك هذه العوامل لبطء تأثيرها ولكننا نراها في الاحافير وآثار الحيوانات القديمة في بعض الصخور ولهذه الاحافير شأن كبير في درس تاريخ الارض » الى ان قال : « وتختلف طبقات الارض باختلاف عمقها والادوار التي مرت بها وقد تألف بعض الطبقات من الاعشاب والاشجار

المنحلة ومما تركه البحر فيها من المواد لما كانت اليابسة بحراً»

أما تعاقب البر والبحر فمن الآراء التي وضعها العرب وأيدها العلم وقد ذكرنا في غير هذا المكان ما قاله المسعودي في هذا الشأن ورأينا الآن ان نجمل بعض ما قاله القزويني في وصف الانقلابات البطيئة التي تطرأ على اليابسة قال بلسان أحد الجن ما خلاصته: مررت يوماً بمدينة قديمة جداً فسألت أحد سكانها متى تأسست هذه المدينة قال لا نعلم ولا أجدادنا يعلمون ومررت بالمكان عينه بعد ألف سنة فرأيت فلاحاً يفلح الارض وقد توارت المدينة وضاع أثرها فقلت ما ذا حل بالمدينة التي كانت هنا قال ما هذا السؤال ان هذه الارض كانت منذ الازل كما تراها الآن. ثم مررت بعد ألف سنة أخرى بالمكان عينه فلم أرَ مدينة ولا فلاحاً بل وجدت بحراً كبيراً وعلى شاطئه بعض صيادي السمك فقلت متى وصل البحر الى هذا المكان قالوا أمثلك من يسأل هذا السؤال ان هذا المكان كان بحراً منذ الازل ...

وقد قسم العرب أزمنة الكون الى أربعة أزمنة.

فالزمن الاول هو الذي تكوّنت فيه الاراضي الاصلية.

والزمن الثاني هو الذي رسبت فيه الاراضي المتوسطة وكانت درجة الحرارة في الزمن الاول شـديدة جدًا وكان الجو مشحونًا بأبخرة كثيفة لا تنفذ منها حرارة الشمس لذلك لم تظهر الـكائنات العضوية على وجه الارض. أما الزمن الثالث فهو الذي ظهرت فيه الحيوانات وأولها ذات الجلد الثخين ثم الحيوانات الضخمة . والزمن الرابع هو الزمن السابق لزمننا وفيه رسبت الاراضي الطوفانية وظهر الانسان

فهذه التعاليم وما شا كلها تدل على ان العرب هم الذين وضعوا معظم المبادئ العلمية الذي قام عليها عـلم الجيولوجيا في هذا العصر

الحساب

الحساب علم يقصد منه استخراج المجهولات العددية من المعلومات العـددية المخصوصة بطريقتي الضم والتفريق ويكون الضم بالجمع ويكون التفريق بالطرح والقسمة وقـد اهتم العرب بهـذا العلم أعظم اهتمام فقالوا في أمثالهم « علم ابنك الحساب قبل الـكتاب » وجعلوا له فروعًا عديدة أهمها

علم حساب النحت والميل لمعرفة كيفية مزاولة الاعمال الحسابية برقوم تدل على الآحاد وتغني عما عداها بالمراتب وحساب الخطأين وحساب الدور والوصايا وحساب الدرهم والدينار وغايته استخراج المجهولات العددية التي تزيد عدتها على المعادلات الجبرية ومن أحسن الكتب المصنفة فيه كتاب اسماعيل بن ابراهيم بن غازي المارديني المتوفي سنة ٦٣١ وعلم حساب الفرائض ويتعلق بقوانين تقسيم التركة وحساب الهواء لحساب الاموال العظيمة بلا كتابة وله طرق مذكورة في بعض الكتب الحسابية وحساب العقود أي عقود الاصابع وقد وضعوا كلاً منها بازاء أعداد مخصوصة ثم رتبوا لاوضاع الاصابع آحاداً وعشرات ومئات وألوفاً وحساب النجوم وغايته معرفة قوانين حساب الدرجات والدقائق والثواني والثوالث بالضرب والقسمة والتجذير والتفريق ومراتبها في الصعود والنزول . على ان هذه الفروع قد استغنوا عنها بعلم الحساب المطلق بعد ما وسعوا نطاقه وزادوا فيه أبواباً كثيرة . ومن أحسن كتبهم فيه كتاب الحصار الصغير وكتاب رفع الحجاب ومؤلفات أبي الوفاء

البوزجاني الفلكي الشهير ومن اكبر مآثرهم وأجلها ووضعهم الارقام ونقلها الى كل انحاء العالم

وقد اختلف العلماء في من اخترع هـذا الفن فعزاه بعضهم الى الهنود وعزاه آخرون الى العـرب الحموراببين ولـكنهم أجمعوا كلهم على ان الافرنج أخـذوه عن العرب بعد الاسلام

وأول كتاب استعملت فيـه الارقام العددية وطريقة المنازل العشرية كتاب ابن سينا . وفي مكتبة القاهرة كتاب خطي آخر يتضمن قواعـد الجمع والطرح والضرب والقسمة ويصف كثيراً من المزايا الخاصة بالاعداد

الجبر

الجبر صناعة استخراج مجهولات عديدة من معلومات مفروضة على وجـه مخصوص وهو من أعظم أوضاع العقل البشري لما فيـه من الدقة وكفى العرب فخراً انهم هم الذين وضعوا قواعده كما نعرفها اليوم تقريباً ولا عبرة لما يقال من انهم أخذوها عن كتابي ذيوفانتوس وابرخس لان ما كتبه

هذان العالمان ليس من الجبر في شيء

وقد اصطلح علماء الجبر على جعل المجهولات مراتب أولها العدد لان المطلوب المجهول يتعين به وثانيها الشيء لان كل مجهول من حيث ابهامه شيء وثالثها المال وهو مربع المبهم قال صاحب الياسمينية في ذلك

على ثلاثة يدور الجبر　　المال والاعداد ثم الجذر
فالمال كل عدد مربع　　وجذره واحد تلك الاضلع
والعدد المطلق مالم ينسب　　للمال أو للجذر فافهم تصب

ويقع العمل المفروض في المسألة على هذا المنوال فتخرج الى معادلة بين مختلفين أو اكثر من هذه الاجناس فيقابلون بعضها ببعض ويجبرون مافيها من الكسر حتى يصير صحيحاً ولذلك سمي هذا العلم «الجبر والمقابلة» واكثر ما انتهت اليه المعادلة عندهم الى ستة ولكن ابن خلدون يقول ان بعض علماء الشرق انهاها الى اكثر من ستة وبلغها الى فوق العشرين واستخرج لها أعمالاً دقيقة ببراهين هندسية وقد عنوا بتحليل المقدمة التي استعملها ارخميدس في الرابع من الثانية في الكرة والاسطوانة فلم يفلحوا فجزموا بانها غير

ممكنة الى ان حلها أبو جعفر الخازن بالقطوع والمخروطية .

قيل ان اول من صنف بهذا العلم ابو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي ولكن العلامة سديو دحض هذا القول بما اورده الخوارزمي في مقدمة كتابه وهو ان المأمون كلفه وضع رسالة بسيطة في الجبر والمقابلة باسلوب يفهمه العامة ومعنى ذلك ان كتب الجبر كانت عند العرب حينئذ طويلة وعويصة لا ينتفع بها الا العلماء فرأى المأمون من فائدة هذا العلم ما حمله على نشره بين جميع طبقات الشعب بتكليف الخوارزمي وضع رسالة بسيطة لتعليم العامة مبادئ الجبر

على ان أبا موسى هذا اكتسب شهرة عظيمة في اوربا حتى ان فريقاً من علمائها كالعلامة كردان والعلامة ليوناردي بيز عزى اليه اختراع علم الجبر ويلوح لنا ان سبب هذه الشهرة هو ان الافرنج أخذوا هذا العلم عن كتاب الخوارزمي وان العلماء المتأخرين لم يؤيدوا ستيفل وكبلر في قولهما ان مخترع الجبر هو جابر بن حيان الكيماوي الشهير

وأشهر الذين صنفوا في الجبر ووصلت الينا تصانيفهم بعد ابي موسى الخوارزمي ابو كامل شجاع بن اسلم وابو الوفاء

البوزجاني وابو حنيفة الدينوري المتوفي سنة ٢٨١ ﻫ وابو العباس السرخسي المتوفي سنة ٢٨٦ ﻫ وغيرهم قال ابن خلدون ان كتاب ابي كامل شجاع بن اسلم في مسائل الجبر الست من احسن الكتب وقد شرحه كثير من اهل الاندلس فاجادوا ومن احسن شروحاته كتاب القرشي. وقد استخدم العرب الارقام الهندية في الجبر ويعترف الافرنج انهم اخذوا هذا العلم مع اسمه عن العرب وان ما وجد منه عند الهند واليونان ليسا من الجبر في شيء

الهندسة

كان مرجع العرب في الهندسة الى كتب بطليموس الذي أخرج هذا العلم من القوة الى الفعل وكتب اقليدس من حكماء اليونان وقد عربت في خلافة ابي جعفر المنصور ثم اعيد تعريبها على يد مهندس شهير يقال له ابو كامل في مؤلف كبير سماه كتاب الاركان وفيه ١٥ مقالة في السطوح والاقدار المتناسبة ونسبة السطوح بعضها الى بعض والعدد والمنطقات والجذور والمجسمات وقد ألحق العرب بذلك علم الهندسة المخصوص بالاشكال الكروية وعلم المخروطات

وعرفوا مايقع من الاشكال والقطوع في الاجسام المخروطة وأفادوا النجارة والبناء بالطرق التي اخترعوها لرفع الاثقال وجرها وامتازوا بالعلوم الهندسية على سواهم من الامم ووضعوا لها قواعد ما بعدها غاية في الاصلاح وكانت لهم عناية خاصة بها قال ابن خلدون: كان شيوخنا رحمهم الله يقولون « ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الاقذار وينقيه من الادران » وقد جعلوا لها فروعاً عديدة أهمها « المساحة » وهي صناعة استخراج مقدار الارض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع أو غيرهما ونسبة ارض من ارض اذا قيست بمثل ذلك و « المناظرة في فروع الهندسة » وهي علم يبحث في اسباب الغلط في الادراك البصري وكيفياته مستنداً الى البراهين الهندسية. ولهم علوم اخرى من فروع علم الهندسة لا مجال لذكرها الآن

وقد احدث العرب في الهندسة اموراً عظيمة الشان منها انهم طبقوها على المنطق وأدخلوا في الجبر والحساب اساليب جديدة في استخراج المسائل الحسابية من جهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي واستخرجوا مسائل

هندسية عديدة لم يستخرجها احد من الاولين كقسمة الزاوية الى ثلاثة اقسام متساوية [١] وطرح خطين بين خطين ذي توالي [٢] واشتغلوا في أعوص المسائل الهندسية كقسمة الدائرة الى سبعة اقسام [٣] ووضعوا علم المثلثات واستعملوا الجيوب عوضاً عن اوتار مضاعف الاقواس والحقوا بالهندسة علم الاشكال الكروية وعلم المخروطات وأفادوا البناء فائدة كبيرة بدت للعالم في ما تركوه من الآثار العظيمة

السياسة

ظهر بين العرب كثيرون من رجال السياسة والادارة أهمهم معاوية داهية الشرق وعبد الملك بن مروان وهرون الرشيد والمأمون وغيرهم من الخلفاء والوزراء والولاة الذين يضيق هذا الكتاب عن تعدادهم وقد انصرفت عناية العرب ولا سيما في العصر العباسي الى الابحاث السياسية والادارية فألفوا مصنفات عديدة في نظام الدولة وواجبات

(١) طبقات الاطباء (٢) تراجم الحكماء (٣) تاريخ آداب اللغة العربية

الملك والرعية وتنظيم الجيش وتدبير المملكة يتخلل ذلك كثير من النصائح للملوك والامراء والموظفين الى غير ذلك مما يدخل في باب السياسة

ومن أهم كتب السياسة التي وصلت الينا من العرب كتاب أبي زيد البلخي وكتاب أبي نصر الفارابي في السياسة المدنية وكتاب سياسة الملك للماوردي المتوفي سنة ٤٥٠ وكتاب سياسة المالك في تدبير المالك لابن أبي الربيع وهو كتاب جليل لم يترك بحثاً من ابحاث السياسة والعمران والاخلاق إلاّ طرقه وأوضح مسائله وكتاب سراج الملوك لابي بكر الطرطوشي وكتاب المنهج المسلوك في سياسة الملوك لعبد الرحمن بن عبد الله وكتاب الدرّة الغرّاء في نصائح الملوك والولاة والوزراء لمحمود بن اسماعيل الجيزي وكتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك وغيره من الكتب النفيسة في هذا الموضوع

علم العمران

نشأ علم العمران في عهد العباسيين وأشهر من صنف فيه ابن خلدون فقد ذكر في مقدمته وفي الجزء الاول من

تاريخه كل ما يتعلق بنظام الاجتماع وما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك كله من العلل والاسباب . وجاء في كتاب سياسة المالك في تدبير الممالك لابن أبي الربيع فصول شائقة في العمران عدا ما في غيره من كتب الادب والسياسة

وعلى الجملة فقد كان علم العمران من بعض الثمار الجيدة التي أنضجتها قرائح العرب ونقلها عنهم الافرنج فتصرفوا فيها وتفننوا في تبويبها وتنسيقها

الاقتصاد السياسي

عني العرب كثيراً بعلم الاقتصاد السياسي وألفوا فيه كتباً عديدة أهمها كتاب الاشارة الى محاسن التجارة للشيخ أبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي وهو كتاب نفيس يبحث في حقيقة المال وأنواعه واستثماره وطرق اكتسابه وما شاكل ذلك

ويليه في الاهمية كتاب الجواهر وأصنافها لمحمد بن

شاذان وكتاب مزاجات الجواهر وعمل الفولاذ وغير ذلك كثير من الكتب التي تبحث في هذا العلم

علم تدبير المنزل

هو علم لم يتصل اليه الاوربيون الا بعد مانضج تمدنهم الحديث على ان العرب ألفوا فيه منذ اكثر من ألف سنة. قال المرحوم زيدان ان حد هذا العلم عندهم « معرفة اعتدال الاحوال المشتركة بين الانسان وزوجته وأولاده وطريق علاج الامور الخارجة عن الاعتدال » وان موضوعه « احوال الاشخاص المذكورة من حيث الانتظام » وحاصله « انتظام أحوال الانسان في منزله ليتمكن من رعاية الحقوق الواجبة بينه وبينهم »

ومن اشهر المؤلفات في هذا الباب كتاب تدبير المنزل ذكره صاحب الفهرست وكتب في الطبخ وغيره لابراهيم ابن المهدي ويوحنا بن ماسويه وابراهيم بن العباس الصولي وعلي بن يحيي واحمد بن الطبيب والرازي وغيرهم وقد كانت كلها مبنية على العلم الصحيح ولكن معظمها فقد لسوء الحظ

سائر علوم العرب

قسم صاحب كتاب مفتاح السعادة علوم العرب الى ستة ابواب

اولاً العلوم الخطية وعددها تسعة علوم

ثانياً العلوم المتعلقة بالالفاظ اي العلوم اللسانية والتاريخ وغيرها وعددها ٤٤ علماً . منها علم التراجم وعلم الموسوعات وغيره . وعلم التراجم من أوضاع العرب وثمار حضارتهم وقد أخذه الافرنج عنهم

ثالثاً العلوم الباطنية عما في الاذهان من المنقولات وعددها خمسة علوم

رابعاً العلوم المتعلقة بالاعيان ومنها الطبيعيات والرياضيات والطب وما شاكل ذلك وعددها ١٢٢ علماً

خامساً العلوم الحكمية العلمية وعددها ثمانية علوم

سادساً العلوم الشرعية وعددها مئة علم

وللعرب في كلٍّ من هذه العلوم ألوف من المؤلفات النفيسة لذلك لم نرَ بدًّا من الاقتصار على ما تقدم ذكره لضيق المقام

الفصل الرابع

﴿ الفنون والصنائع عند العرب ﴾

﴿ فن الحرب ﴾

كانت الحروب على نوعين نوع بالزحف صفوفاً ونوع بالكرّ والفرّ . قال ابن خلدون « وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكرّ والفرّ لان الصفوف تسوّى فيه كما تسوى القداح ولذلك تكون أصدق في القتال وأرهب للعدو . وفي التنزيل « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص »

وكان قتال العرب في أوّل الاسلام كله زحفاً وأوّل من أبطل الصف وصار الى التعبئة كراديس مروان بن الحكم والكراديس هي ما نسميه اليوم فرقاً وكانوا يرتبونها ترتيباً فنياً حسناً فيجعلون بين يدي الملك أو القائد جيشاً منفرداً يسمونه المقدمة ثم جيشاً آخر الى اليمين يسمونه الميمنة ثم جيشاً آخر من الشمال يسمونه الميسرة ثم جيشاً آخر من وراء الجيوش يسمونه الساقة ويقف الملك أو القائد بجيشه


الجاة المسلحة لاعانة الميمنة وسدّ خلل راوه
الجاة المسلحة لاعانة القلب وسدّ خلل راوه
الجاة المسلحة لاعانة الميسرة وسدّ خلل راوه
الرجالة بالترسة والرماح
الرجالة الناشبة
قايد راس الميمنة
قايد القلب الاعظم
جاة الميسرة
قايد راس الميسرة
نفضة الطوق
اصحاب قايد راس الميمنة
اصحاب قايد القلب الاعظم
الفقهاء والكتاب
المصلى اذا حضر العيد
الدارجة
اصحاب صاحب الميمنة
بعض الجمهور
ابناء الملك
الخدم
مقدمي الخصيان
مرابط العامة
الجاة
صاحب الميمنة
ابناء الملك
القاضي
المحسب
الطريق الى العسكر عرضه ثلاثون خطوة والطول ما بلغ
الاخوان
اصبهبد
اصبهبد اليمين
اصحاب اصبهبد اليمين
انبردارية
الحرس فرسان ورجالة
الدهليز
الملك
الطريق الى العسكر من الميمنة عرضه ثلاثون خطوة والطول ما بلغ
الطريق الى العسكر من الميسرة عرضه ثلاثون خطوة والطول ما بلغ
صاحب شراب العامة
اصبهبد
الاخوان
اصحاب الاصبهبد
الاطباء
صاحب الساقة
اصحاب صاحب الساقة
اتباعهم
صاحب المصلى
اصبهبد
صاحب الطريق
صاحب الخدم الذي يقدم الناس الى الملك
اصحاب الطبول والقرون والبوقات
امير علم
الاحرار
صاحب الحرس
اصحاب الكوسات
الخصيان
صاحب الميسرة
نفضة الطريق
الدارجة
اصحاب صاحب الميسرة
الطريق الى العسكر عرضه ثلاثون خطوة والطول ما بلغ
الخندق
الخندق

في الوسط ويسمون موقفه القلب وهذا ما كانوا يدعونه التعبية

وكانت التعبية عندهم على سبعة أنواع وهي (١) ترتيب الجيش بشكل هلال (٢) بشكل هلال مقلوب (٣) بشكل ثلاثة أهلة (٤) بشكل مربع مستطيل (٥) بشكل مربع منحرف (٦) بشكل مثلث (٧) بشكل دائرة مزدوجة وهي دائرتان احداهما داخل الاخرى وكانوا يعمدون اليها اذا كان جندهم قليلاً وهي أشبه شيء بآخر ما بلغ اليه الافرنج من التفنن بالتعبية أي مربع بونابرت الذي دوخ به العالم ولا يزال عمدة الجيوش الى الآن

وكانوا يحفرون الخنادق حول المعسكر عند ما يدنون من العدو خوفاً من المفاجأة . قال أبو بكر الصيرفي في سياسة الحرب :

والبس من الخلق المضاعفة التي
وصى بها صنع الصنائع تبع
والهندواني الرقيق فانه
أمضى على حد الدلاص وأقطع

واركب من الخيل السوابق عدةً
حصناً حصيناً ليس فيه مدفع
خندق عليك اذا ضربت محلة
سيان تتبع ظافراً أو تتبع
والواد لا تعبره وانزل عنده
بين العدو وبين جيشك يقطع
واجعل مناجزة الجيوش عشيةً
وورآؤك الصدق الذي هو أمنع
واذا تضايقت الجيوش بمعركٍ
ضنك فأطراف الرماح توسع
واصدمه أول وهلة لا تكترث
شيئاً فاظهار النكول يضعضع
واجعل من الطلاّع أهل شهامة
للصدق فيهم شيمة لا تخدع

وأوصى علي بن أبي طالب أصحابه يوم صفين قال « قسوا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الاضراس فانه أنبأ للسيوف على الهام

والتووا على أطراف الرماح فانه أصون للأسنة وغضوا الابصار فانه أربط للجأش واخفتوا الاصوات فانه أطرد للفشل وأولى بالوقار وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها إلاّ بأيدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانه بقدر الصبر ينزل النصر»

وكان العرب يعنون كثيراً بوضع الخطط الحربية ودرسها قبل نشوب المعركة ويعتمدون على دهاء القوَّاد وحنكتهم وحسن تدبيرهم وقد جاء في أمثالهم « الحرب حيلة » و« رب حيلة أنفع من قبيلة » ونبغ منهم قوَّاد عظام طبقت شهرتهم الخافقين كخالد بن الوليد والحجاج وعمرو بن العاص وغيرهم. وقد قال أحد كتاب الافرنج الحربيين في كلامه عن خالد بن الوليد « سيأتي يوم يظهر فيه دهاء هذا القائد العظيم بأتم مظاهره وينظر اليه المؤرخون ورجال الحرب نظرهم الى هنيبال واسكندر ونبوليون »

وأهم التدابير التي كان العرب يتخذونها لاحراز النصر في الحروب بث العصبية في الجيش وتوحيد خطط الفيالق وتنظيمها والاكثار من الاسلحة والمعدات الحربية ولهم كتب عديدة في فن الحرب منها كتب التعابي أي حشد

القوات وترتيب الفرق وقد قالوا الرجال كالاشباح والتعابي كالارواح فاذا حلت الارواحُ الاشباحَ حصلت الحياة ومنها كتب سياسة الجيش والجهاد وقود العساكر وتهيئة الارزاق وغير ذلك

ومن أشهر مصنفات العرب في فن الحرب كتاب «تحفة المجاهدين في العمل بالميادين» للامير لاجين بن عبد الله الذهبي الحسامي الطرابلسي وهو يبحث في الحركات العسكرية ومنه نسخة في برلين

وكتاب كشف الكروب في معرفة الحروب لعماد الدين موسى بن محمد اليوسفي وقد جاء في عشرة ابواب (١) وقوف السلطان (٢) الدخول في الحرب والخروج منها (٣) ما يستعان به عليها (٤) ما يحتاج اليه السلطان من الفروسية (٥) تجنب العجب والبغي والعمل بالوفاء (٦) فضل الحصار والدخول والغارة وما شاكل ذلك

وكتاب الاحكام الملوكية والفوائد الناموسية لمحمد بن منكلي نقيب الجيش وكتاب الاقوال الكافية في الفصول الشافية ومنه نسخة في المتحف البريطاني

ويوجد نسخة خطية عربية لم يعرف مؤلفها في مكتبة غوطا تبحث في التعبية والحركات العسكرية في الحروب وحشد الجيوش وواجبات أمرائها وقوادها وتنظيم المعسكر وترتيبه ومنزلة كل قسم منه

وقد استعمل العرب جميع الاسلحة القديمة بعد ما حسنوا فيها (١) وعرفوا كل الاختراعات الموجودة الى عهدهم وزادوا



فرسان من العرب يقذفون النار اليونانية

« نقلا عن كتاب خطي قديم في مكتبة باريس »

عليها وكفاهم فخراً انهم هم الذين اخترعوا البارود واستعملوا الاسلحة النارية في الحروب(٢) قبل الافرنج باكثر من مئة عام وقد أخذها الافرنج عنهم واستعملوها الاول مرة في معركة كراسيه

---

(١) راجع الرسوم من صفحة ٥٩ الى صفحة ٩٩

(٢) راجع الرسم المنشور في صفحة ٨٣

وقد جعلوا لكل حركة من الحركات العسكرية نداءً خاصاً كقولهم « النفير النفير » أي استعدوا للهجوم و « هجوم » اي اهجموا و « الرجعةَ الرجعةَ » اي تقهقروا و « الخيلَ الخيلَ » اي اركبوا الجياد و « الارضَ الارضَ » اي ترجلوا



آلة حصار عربية لاطلاق النار اليونانية

قال المرحوم زيدان ولما تعددت اجزاء الجند عند العرب وتنوعت حركاته كثرت الالفاظ التي كان يستعملها القوّاد

لاصـدار الاوامر الى الجيش وهـذه هي : (١) الميل (٢)الانقلاب (٣) الانفتال (٤) تسوية الانفتال (٥)استدارة صغرى (٦) استدارة كبرى (٧) تقاطر (٨) اقتران (٩) رجوع الى الاستقبال (١٠)استدارة مطلقة (١١) اضعاف (١٢)اتباع الميمنة (١٣) اتباع الميسرة (١٤) جيش منحرف (١٥) جيش مورب (١٦) جيش مسـتقيم (١٧) رض (١٨) تقـدم (١٩) حشو (٢٠) رادفة (٢١) ترتيب بعد ترتيب

الملاحة والحرب البحرية

كان للعرب قبـل الاسـلام متاجر واسعة مع الهند والحبشة والروم وغـيرهم فكانت تدفعهم الحاجة الى ركوب البحار ومعرفة تسيير المراكب واجتناب الجبال والجزر والصخور . قال ابن كلثوم التغلبي في معلقته

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سـفينا
اذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ تخر له الجبابر ساجدينا

ولما ظهر الاسلام وخفقت أعلام العرب على سواحل الشام ومصر وشاهدوا سفن الروم تاقت نفوسهم الى الحروب البحرية فركب معاوية البحر الى قبرس واحتلها ثم جعل

ينشئ السفن ويعد المعدات البحرية لفتح ما وراء البحر .



اسطول عربي يحارب الروم

وقد سمى العرب مجموع السفن الحربية اسطولاً وجعلوا مقر اساطيلهم بحر الروم وأنشأوا الترسانات لصنع الاساطيل

واعداد معداتها فلم يمض طويل زمن حتى صارت سيادة البحار في قبضة يدهم ففتحوا أشهر جزر بحر الروم كسردينيا وصقلية ومالطه وكريت وغيرها واستولوا على كثير من شواطئ هذا البحر ونبغ منهم قوَّاد عظام من مشاهيرهم احمد الصقلي قائد اساطيل المغرب وفي عهده بلغت عمارة العرب منتهى القوَّة والمنعة وكان عددها مئة اسطول على مارواه ابن خلدون

وكانت السفن الحربية على انواع منها الشونة وهي سفينة كبيرة فيها قلاع وابراج للدفاع والحراقة وكانوا ينقلون فيها المنجنيقات لرمي النفط والطرادة وهي سفينة صغيرة سريعة السير وغير ذلك .

فن البناء

بلغ فن البناء عند العرب حدًّا من الاتقان ونظام الهندسة يفوق التصور ويقصر عن وصفه البيان

ولما كان هذا الفن من اعظم مظاهر الحضارة بل من اعظم اركانها في الامم لم أرَ بدًّا من الاشارة الى ما كان عليه عند العرب مقتصراً على ذكر اعظم آثارهم الخالدة ونشر

بعض رسومها لأنها أبلغ وصف لما كانوا عليه من الحضارة والرقي وقد قال شاعرهم

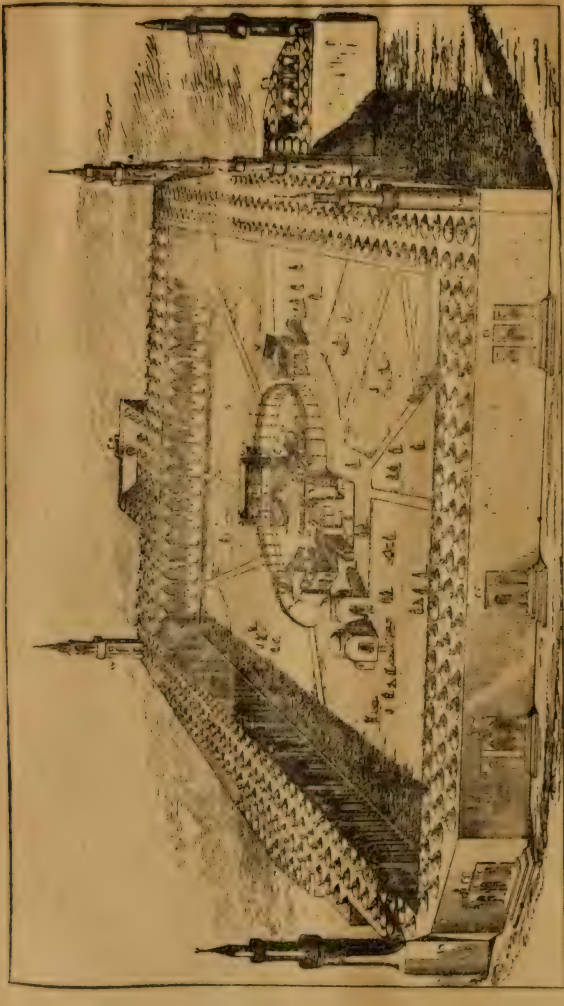
تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

فمن آثارهم قبل الاسلام سد مأرب العظيم الذي بنته الملكة بلقيس في فرجة وادٍ بين جبلين وهو من عجائب الدنيا وقد تكلم المؤرخون عما نشأ عن هدمه من المكاره وأرَّخوا بزمنه وعيَّنوه بتاريخ غير مجمع عليه عند العلماء (انظر خريطة سد مأرب)

ومنها قصر غمدان وهو قصر جميل بظاهر صنعاء اليمن وله غرف شهيرة يسمونها المحاريب وهو محكم البناء عظيم الارتفاع ذو سبع طبقات وفيه ما لا يوصف من الزخارف والصنائع الغريبة . جاءَ في محيط المحيط ان قصر غمدان ذو أربعة وجوه أحمر وأصفر وأبيض وأخضر وفي داخله قصر بسبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعاً (انظر صفحة ٣٤)

ومنها قصر الخوَرْنق في ظهر الكوفة وصرح الغدير وهو من أبنية ملوك غسان بأطراف حوران بناه ثعلبة بن عمرو بن جفنة الغساني

ومنها قصر الابيض (انظر صفحة ٣٢) وقصر المشتى



المسجد الحرام في مكة

(انظر صفحة ٣٥) وقصر بصرى (انظر صفحة ٣٦)

وقصر السدير في العراق وقصر السويداء وقصر مأرب وحصنا مارد والابلق بناهما السموءل بن عادياء الغساني وكان مارد بدومة الجندل وهو مبني بحجارة سوداء وكان الابلق بأرض تيماء مبني من حجارة سوداء وبيضاء وقد عرفا



المسجد الاقصى

بالضخامة والمتانة .قيل ان هنداً ملكة الجزيرة المعروفة بالزباء حاصرتهما فلم تقوَ على فتحهما فقالت (تمرَّد مارد وعزَّ الابلق) فذهب قولها مثلاً

أما المباني الفاخرة والقصور الشاهقة التي شادها العرب بعد الاسلام في معظم انحاء العالم القديم فاكثر من ان تحصى

منها المسجد الاقصى في اورشليم اختطه عمر بن الخطاب والجامع الاموي بدمشق بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان وهو من أعظم أبنية العرب طوله ٥٥٠ قدماً وعرضه ١٥٠ قدما قام على أعمدة عظيمة من الجرانيت والرخام المختلف



الجامع الاموي

الالوان وكان في قبته ١٢ ألف مصباح معلقة بسلاسل من الذهب والفضة وجدرانه وقبته مزينة بالقيشاني والفسيفساء على أبدع الرسوم الهندسية

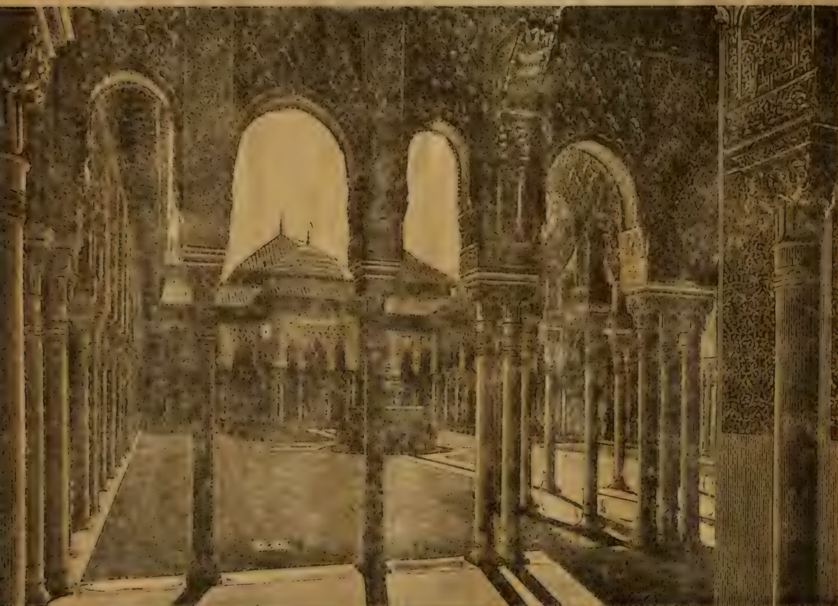
أما في الاندلس فقد بلغت هندسة البناء حداً مدهشاً من الابداع والاتقان

وقد قسّم المؤرخ الشهير جيرودت دي برانجه أزمنة الرقي الصناعي في الاندلس الى ثلاثة عصور . العصر الاول يتناول القرن الثامن الى العاشر وفيه كانوا يكثرون من النقوش والتزويق بالحصى المختلفة الالوان ويقيمون أقواساً ومنحنيات تمثل رسوماً هندسية غاية في الابداع . والعصر الثاني يمتد من القرن العاشر للقرن الثاني عشر وفيه عني العرب بجعل البناء على الهندسة المغربية فزينوا الجدران بالقيشاني واخترعوا صناعة الزركاش وهي حياكة النسيج بخيوط من الذهب والفضة يرسمون بها الازهار والطيور والحيوانات وغيرها من الرسوم الجميلة المتقنة فتبدو كأنها مسبوكة بيد صائغ أو مرسومة بريشة مصوّر

وقد اخترعوا مزيجاً من المواد قلدوا به الرخام تقليداً تاماً وتفننوا بالنقوش تفنناً عظيماً

ثم يأتي بعد ذلك العصر الثالث وفيه بلغ البناء أبعد غاية في الاتقان وحسن الهندسة وجمال الوضع كما تشهد بذلك عظمة الحمراء . وهي حصن بغرناطة يسع اربعين الف رجل فيه ثلاث دور عظيمة . احداها دار الاسود وفيها ١٢

اسداً من المرمر وهي مبنية من الرخام والمرمر . والثانية دار ابن سراج وهي اجمل منها وسقفها من خشب الأرز مرصع بالعاج والصدف والفضة وجدرانها مزينة

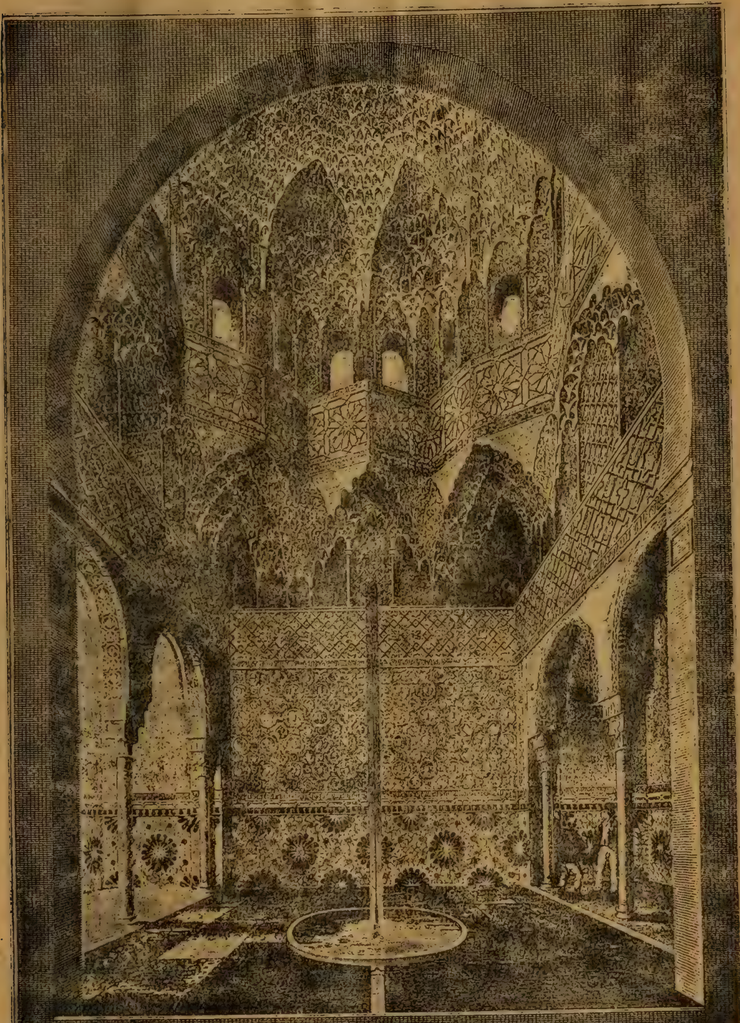


دار الاسود في قصر الحمراء

برسوم بديعة لا تزال الوانها على بهائها ورونقها الى الآن والثالثة دار الشقيقتين وهي غاية في الاتقان

وفي هذه الدور قاعات فاخرة مزينة بالاساطين

والشرفات المطلة على الحدائق النضرة وكلها على أحسن ترتيب



دار ابن سراج في قصر الحمراء

وابدع نظام والماء ينساب في جوانبها على ابهى منظر .
وتمتاز دار ابن سراج بقبة عظيمة الارتفاع جدرانها

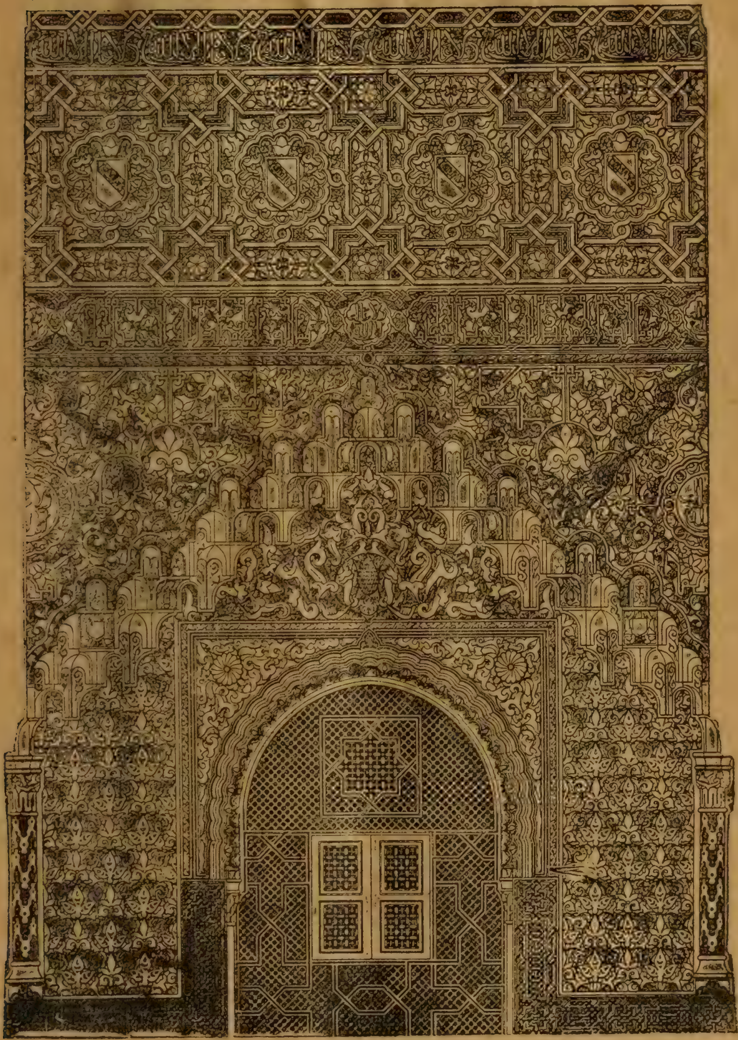


دار الشقيقتين في قصر الحمراء

نقلاً عن رسم للمسيو جونس

مزينة بأجمل النقوش ومرصعة بالفسيفساء ترصيعاً يمثل

حفلات الصيد ومعداته وانواع الحيوانات . وقد شرع



دار الشقيقتين ونقوش الطابق الثاني

ابن الاحمر في بناء الحمراء سنة ١٢٤٨ م وأتمها حفيده محمد



نافذة من نوافذ جامع الحمراء

الثالث نحو سنة ١٣١٤ م وأشهر من عني بنقشها وتزيينها

يوسف الاول . وقد قلد الانجليز الحمراء بقصر شادوه أخيراً في سيدنهام بانجلترا . ومع انهم لم يبلغوا بتقليدهم الاصل فان ما بنوه يعد من أعظم المباني العصرية وأجملها

ومما يضاهي الحمراء بجمال الهندسة وفخامة البناء بل يفوقها عظمة وجمالاً قصر الزهراء الذي بناه الملك الناصر على مقربة من قرطبه وكانت مجالسه مبلطة بأفخر أنواع الرخام وسقوفه مغشاة بالذهب وابوابه مصنوعة من خشب الارز . وكان فيه بحيرة كبيرة يجري الماء اليها من تماثيل مدهشة الصنع بديعة الاتقان وفيه موضعان من خالص الذهب على أصغرهما صورة أسد وغزال وعقاب وثعبان مرسومة بالجوهر وكانت أبوابه من خشب الارز منقوشة نقشاً يحير الالباب وأعمدته غاية في الاحكام والاتقان كأنها أفرغت في قوالب .

وأجمل مجالس هذا القصر وأبهاها المجلس الذي كان يسمى مجلس الخلافة . قال المقريزي في وصفه :

« كان سقفه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه المتلونة أجناسه وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك . وجعلت في وسطه اليتيمة التي أتحف الناصر بها لاون

ملك القسطنطينية . وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة . وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق . وكان في كل جانب من هـذا المجلس ثمـانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر وقامت على سواري من الرخام الملوّن والبلّور الصافي. وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار . وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسـه أومأ الى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لـكل من في المجلس ان المجلس قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك »

وأحدق الناصر بالقصر بساتين عديدة الاشجار متنوعة الاثمار كثيرة الغياض من آس وثمار وكل نبت طيب الرائحة وأجرى فيها المياه حتى جعلها جنة من أجمـل جنات العالم .

وقد قال الشاعر في رثائها :

وقفت بالزهراء مسـتعبراً معتـبرا أندب أشـتاتا
فقلت يا زهراء ألا فارجعي قالت وهل يرجع من ماتا

فلم أزل أبكي وأبكي بها هيهات يغني الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى نوادب يندبن أمواتا

ومن مبانيهم الشهيرة قصر الشراحيب في مدينة شلب من أعمال قرطبة. وفيه يقول المعتمد بن عباد الاندلسي:

وسلم على قصر الشراحيب عن فتى
له أبداً شوق الى ذلك القصر

ومنها قصر السرور ومجلس الذهب في مدينة سرقسطة وفيهما يقول ابن هود:

قصر السرور ومجلس الذهب بكما بلغت نهاية الطرب

ومنها قصر طليطلة بناه المأمون بن ذي النون وأنفق عليه أموالا طائلة وصنع في وسطه بحيرة ذات قبة من زجاج منقوش بالذهب وجلب الماء الى قمة القبة بهندسة عجيبة جعلت الماء يصب من أعلى القبة وينسكب على جوانبها من الخارج والمأمون جالس في داخلها لا يمسه الماء وقد وصف أبو محمد البصرى هذا المشهد البديع بقوله:

شمسية الانساب بدرية يحار في تشبيهها الخاطر
كأنما المأمون بدر الدجى وهي عليه الفلك الدائر

ومنها قصر اشبيلية ويرجع تاريخه الى القرن الحادي عشر للميلاد . ولم يندثر هذا القصر كغيره من القصور لأن ملوك أسبانيا أقاموا فيه زمناً طويلاً ولكنهم جددوا دهان جدرانه نخفيت بذلك محاسنه الاصلية الى ان جاء الدوق

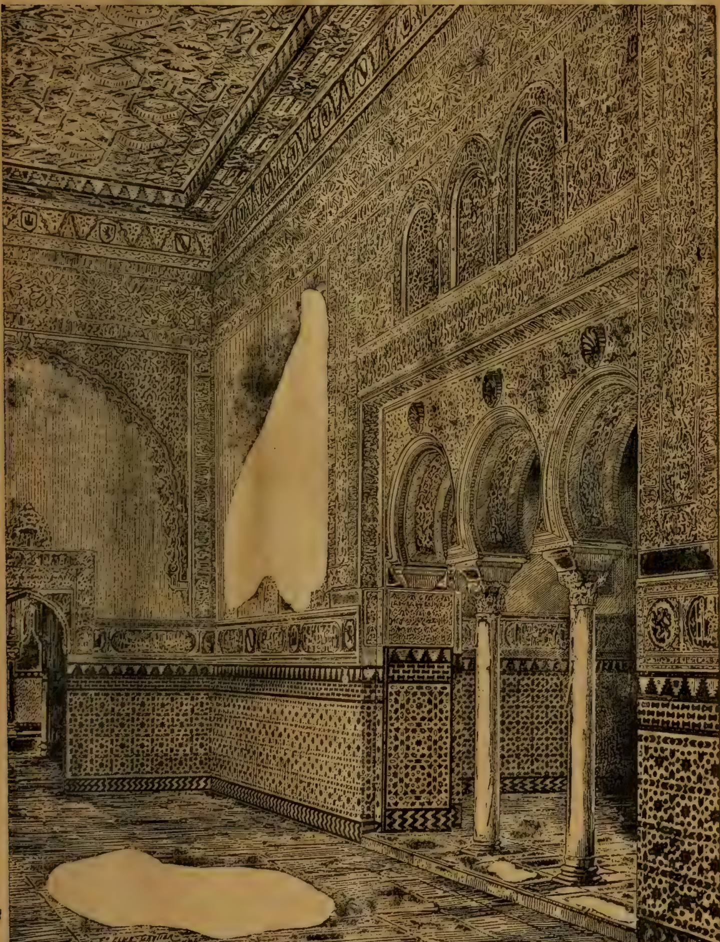


قصر اشبيلية

دي مونبانسية فأزال هذا الدهان وأظهر فيه عجائب الصناعة العربية بأتم مظاهرها

ومنها القصر الكبير وهو آية من آيات الزمان شرع ببنائه عبد الرحمن الداخل في اواسط القرن الثاني للهجرة

وأتمه من جاءَ بعده وهو مؤلف من ٤٣٠ داراً وعدد كبير من



قاعة في قصر اشبيلية

القصور الفخيمة لكل منها اسم خاص كالكامل والمجدد

والحائر والروض والمعشوق والمبارك والرستق وقصر السرور والبديع وقد غالوا في زخرفها واتقانها وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والاحواض وجلبوا اليها الماء من الجبال وفرعوه في ساحاتها ونواحيها وكان الماء ينصب فيها



مسجد قرطبة من الداخل

من أنابيب من الذهب او الفضة بصور الحيوانات الكاسرة أو الطيور الجميلة على أشكال بديعة .

ومنها مسجد قرطبة قيل لم يكن في بلاد الاسلام اعظم

منه ولا اعجب بناء واتقن صنعة . ابتدأ في بنائه عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ثم توالى الخلفاء الامويون على الزيادة فيه الى ان كمل على يد نحو الثمانية منهم . وكان سقف البلاط من القبلة الى الجوف ٣٣٠ ذراعاً وعرضه ٢٣٠ ذراعاً. وكان عدد بلاطه ١١ بلاطة وعرض أوسطها ١٦ ذراعاً . وتكثيره ٣٣١٥٠ ذراعاً وعدد أعمدته ١٢٩٣ عموداً من الرخام وباب مقصورته من الذهب وكذلك جدار المحراب وكان عدد الخدمة فيه ١٩٠ شخصاً وعدد ثرياته ٢٢٤ دور الثريا ٥٠ شبراً وتحتوي على ١٠٨٤ كأساً موشاة بالذهب

ولا يسعنا الآن ان نأتي على وصف كل ما حوته الاندلس من المباني العظيمة والآثار الخالدة والنقوش الباهرة والقناطر المحكمة والجسور المتينة وما كان فيها من المساجد الفخمة والقصور الشامخة وما امتازت به من جمال النقش وفاخر الاثاث وعظمة التماثيل والحياض المرصعة بالجواهر التي تشهد للعرب بحسن الذوق وكمال البراعة والاتقان .

وقد ترك العرب في كل ناحية وطئوها وكل بلاد افتتحوها من اقاصي الهند والصين الى العراق وسورية

وجزيرة العرب ومصر وافريقيا والاندلس وفرنسا وايطاليا آثاراً عظيمة تدل على مبلغ رقيهم ودرجة حضارتهم نكتفي بالاشارة الى أعظمها شأناً وهي :



قبر زبيدة زوجة الرشيد

في سورية — المسجد الاقصى في القدس وبرج الرملة في الرملة والجامع الأموي بدمشق وغيره

في العراق — قصر الخلد وقصر باب الذهب وقصر

أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد وقصر بني خلف بالبصرة وقصر عيسى بن علي وقصر وضّاح بناه رجل اسمه وضّاح للمهدي العباسي . وقصر الرشيد وقصر الامين وقصر



برج كنيسة سنتياغو في طليطلة
« من اثار العرب في اسبانيا »

الفرات وقصر زبيدة زوجة الرشيد والقصر الجعفري وقصر التاج وقصر الثريا وقصر دار الشجرة وغيره

في مصر — جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون والازهر وجامع المؤيد وقصر الهودج وغير ذلك من القصور

والمناظر كمنظرة اللؤلؤة ومنظرة الغزالة ومنظرة السكرة ومنظرة الدكة ومنظرة المقس ومنظرة باب الفتوح ومنظرة بركة الحبش وغيرها مما طوته الايام



قصر سجوفيا

« من آثار العرب »

في العجم — لم يبق من آثار العرب في العجم الا القليل منها جامع همذان وجامع اصفهان وأنقاض جوامع وقصور أخرى .

في الهند — ومن أعظم آثارهم في الهند برج قتاب وجامعها بجوار دلهي وباب علاء الدين وغيره

افريقيا الشمالية — ومن آثارهم فيها جامع القيروان وجامع تلمسان وجامع طنجة والجامع الكبير في مدينة



برج بليم في البورتغال
« من آثار العرب »

الجزائر وجامع مولاي ادريس في فاس وغيره .

في ايطاليا — قصر زيزا وقصر كوبا بجزيرة صقلية وجوامع بالرما وقصورها وغير ذلك

وقد ترك العرب آثاراً عديدة في فرنسا والبرتغال لا يزال بعضها قائماً الى الآن فضلاً عن المدن العظيمة التي شادوها كالبصرة وبغداد وسامرا والفسطاط وغيرها

الفنون الجميلة

الموسيقى والغناء — كان العرب في زمن جاهليتهم يترنمون بالأشعار على ما توحي به اليهم فطرتهم ويدفعهم اليه شعورهم ويناسب حالة نفوسهم فكان الحداة يتغنون في حداء ابلهم والفتيان في فضاء خلواتهم . وكان الشعراء في عكاظ وغيرها من أسواق الجاهلية ينشدون قصائدهم ويترنمون بها وكانوا يسمون الترنم اذا كان بالشعر غناء واذا كان بالتهليل أو القراءة تغبيراً وعللها ابو اسحق الزجاج بانها تذكر بالغابر وربما ناسبوا في غنائهم مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيد وكانوا يسمون ذلك السناد والهزج وما شاكلهما من الالحان التي تتفطن اليها الطباع بدون علم

ذلك كان شأن العرب في جاهليتهم فلما جاء الاسلام واستولوا على معظم ممالك العالم القديم واختلطوا بالفرس

والروم اقتبسوا منهم فن الغناء والموسيقى وصادف فيهم نفوساً حساسة قابلة للتأثر فانتشر بينهم سريعاً ولحنوا عليه اشعارهم وما لبثوا ان حسنوا فيه واستغنوا عن كثير من نبراته مما لا يألفه الذوق العربي . وأخذ الغناء يزداد اتقانا بتوغلهم في مدارج الرقي والحضارة وقد ألفوا فيه كتباً كثيرة ضمنوها ما وضعوه من الالحان وما ابتدعوه من



بعض آلات الطرب العربية

الآلات واصبح الغناء في العصر العباسي علماً خاصاً ذا أصول وروابط . وكان لمشاهير المغنين منزلة رفيعة في الدولة كابراهيم الموصلي وابنه اسحق وابن جامع وغيرهم وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق الحصر وكانت آلات الطرب عندهم الطبول والشبابة وهي قصبة جوفاء ذات انخاش معدودة في جوانبها ينفخ فيها فيخرج الصوت من جوفها

ويقطع بوضع اصابع اليـدين على تلك الانخاش وضعاً متعارفا حتى تحـدث النسب بين الاصوات فيـه . والمزمار وهو قصبة منحوتة الجانبين جوفاء من غير تدوير مؤلفـة من قطعتين منفردتين وفيهـا انخاش على نحو الشـبابة . والبوق وهو أنبوبة من نحاس في مقدار الذراع وآلات الاوتار وهي جوفاء كلها اما على شـكل نصف كرة مثل المربط والرباب أو على شـكل مربع كالقانون . وتقرع الاوتار اما بعود أو بوتر مشدود بين طرفي قوس واليد اليسرى توقع بأصابعها على اطراف الاوتار في الوقت عينه فتحدث تناسباً في الانغام كما في الكمنجة والعود. وكان للخلفاء عناية عظيمة في الغناء فيبذلون الاموال في سبيل تنشيطه وكانوا يشترطون ان يكون المغني حافظاً للاشعار والنوادر فكان المغنون من أفضل اهـل الادب واللغة كابراهيم الموصلي أو من كبار العلماء كزرياب المغني . وكثيراً ما كان الخلفاء يجمعون المغنين للمناظرة بينهـم بالتلحين ويجيزون المجيدين ويغدقون عليهم الاموال . ذكر ان راتب الموصلي كان في عهد الهادي عشرة آلاف درهم في الشهر وجاء

في نفح الطيب ان زرياب المغني لما قدم من العراق الى الاندلس خرج الامير عبد الرحمن بنفسه للقائه .

ومن مخترعات العرب الموسيقية القانون اخترعه الفارابي الفيلسوف . قيل ان الفارابي هذا حضر مجلس غناء لسيف الدولة فعاب المغنين فسألوه هل يحسن الغناء فاستخرج من جيبه آلة غريبة وركّبها ثم لعب بها . فضحك منها كل من كان في المجلس ثم فكّها وركّبها تركيباً آخر وضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس ثم فكّها وغيّر تركيبها وضرب عليها فنام كل من كان في المجلس . وقال بعض المؤرخين ان الموسيقيين العرب أدخلوا في فن الموسيقى الحاناً لا مثيل لها في تأثيرها منها ألحان لا يقدر الشبعان على غنائها وسقاء يحمل قربةً على الترنم بها . ومنها الحان لا يقدر المتكئ ان يغنيها حتى يقعد ولا القاعد حتى يقوم

وقد زادوا على العود وتراً خامساً زاده زرياب المغني وطبّق عليه أنغامه وهو الذي اخترع مضراب العود من قوادم النسر وكانوا قبله يضربون بالخشب

وممن الفوا في فن الموسيقى يحيي بن أبي منصور الموصلي

وضع كتابين في الاغاني فقد كلاهما

ومنهم عبد الله بن طاهر ألّف كتاباً في النغم سماه الآداب الرفيعة فقد مع كثير غيره من الكتب الموسيقية ومنهم الحسن محمد بن الحسن المعروف بابن الطحان ألف كتاباً اسمه حاوي الفنون وسلوة المحزون يحتوي على ثمانين باباً في الموسيقى . وفي مكتبة زكي باشا كتاب اسمه كشف الهموم والكرَب في شرح آلات الطرب لمؤلفه سيف الدين ابن أبي بكر وصف فيه آلات الطرب وكيفية صنعها .

وقد ورد في كتاب الاغاني وغيره كثير من قواعد هذا الفن الذي نبغ فيه العرب نبغة لم تكن للمتقدمين ولا المتأخرين

الرقص — كان الرقص عند العرب على ثمانية أنواع الخفيف والهزج والرمل وخفيف الرمل وثقيل الثاني وخفيفه وخفيف الثقيل الاول وثقيله . قالوا والرقص يحتاج الى أشياء في طباعه وأشياء في خلقته وأشياء في عمله أمَّا مايحتاج اليه في طباعه فخفة الروح وحسن الطبع على الايقاع وان يكون طالبه فرحاً . وأما ما يحتاج اليه في خلقته فطول العنق والسوالف

ورقة الخصر وحسن الخلق واستدارة الثياب من أسافلها والصبر على طول الغاية ولطافة الاقدام ولين الاصابع وامكان ليها ولين المفاصل وسرعة الانفتال في الدوران . وأما ما يحتاج اليه في عمله فكثرة التصرف في أبواب الرقص واحكام كلّ منها وحسن الاستدارة وثبات القدمين على مدارهما وتناسب ما تعمل يمين الرجل ويسراه قالوا : ولوضع القدم اوجه اهمهما ان يوافق بذلك الايقاع .

الحفر والنقش — للعرب ذوق خاص في صناعة الحفر والنقش . وهذه مصنوعاتهم الحديثة في دمشق ومصر لا يمكن ان يأتي بمثلها الصناع الاوربيون مع انها لا تقاس في شيء بنفاسة مصنوعاتهم القديمة

وفي دور العاديات الاوربية آثار كثيرة تدل على ان صناعها الافرنج قلدوا بها مصنوعات العرب الأندلسيين ولكنهم لم يبلغوا تمام البراعة بل ظلّت آثار التقليد بادية في اعمالهم . ويستدل من آثار العرب الباقية الى الآن وما فيها من جمال الصناعة ودقتها والتفنن في نقش المعادن وتخريمها والتنزيل في الخشب والعاج على انهم كانوا أهل فن وذوق

ورقي مطبوعين على حب الفنون الجميلة على انواعها

التصوير — من الاعتقادات الشائعة ان العرب مقصرون في فن التصوير لان بعضهم يعده الآن محرماً ولـكن الحقيقة غير ذلك فالعرب لم يمتنعوا عن التصوير الا في العصور الاخيرة والدليل على انه لم يكن محرماً عندهم ان بين الخلفاء من كان يضع رسمه على النقود كما يستدل من بعض النقود العربية المرسومة في هـذه الصفحة وفي صفحة ٥٦ من هذا الـكتاب



انموذج من نقود الخلفاء الراشدين

ثم ان بين الآثار التي وصلت الى اوربا من العرب عدداً عظيم من الرسوم والتصاوير . قال المقريزي انه لما نهب قصر المستنصر سنة ٤٦٠ هـ وجد فيه ألف رسم لخلفاء العرب وأبطالهم وعظماء رجالهم . وقد ألف كتاباً خاصاً ذكر فيـه

أسماء مشاهير المصوَّرين من العرب وقال انه كان في الاندلس مئات من مدارس التصوير

ويؤخذ مما قاله المقريزي وهو من أشهر المؤرخين وأصدقهم في وصف الرسوم التي شاهدها عند العرب انهم فاقوا بهذا الفن الجميل جميع الامم التي تقدمتهم . فقد ذكر انه كان في القاهرة رسم سُلم لاينظر اليه أحد إلاّ ويظنه سلّماً حقيقياً . وقد زين العرب بالرسوم معظم الكتب التي



مجلس القضاة في الاندلس

« نقلا عن اطلال الحمراء »

ألفوها في العلوم الطبيعية ويوجد نسخ خطية من مقامات الحريري فيها رسوم صنع العرب . وفي قصر « الاسكورال » كتاب خطي يحتوي على أربعين رسماً لملوك العرب ومشاهير النساء والقواد والعظماء . والذين زاروا قصر الحمراء يقولون ان

في سقفها عدداً كبيراً من رسوم قوّاد العرب وكبار رجالهم .

وكل ذلك يدل على انهم لم يهملوا التصوير إلاّ في القرون الاخيرة . وانهم أضاعوا في هذه المدة القصيرة لسوء الحظ معظم آثار الاقدمين لاسباب لا مجال لذكرها في هذا الكتاب .

النحت ـ ان ما قلناه عن التصوير نقوله أيضاً عن النحت فالتماثيل التي صنعها العرب وزينوا بها قصورهم فقدت كلها تقريباً ولا نعرف شيئاً عنها الاّ ما نقرأه في كتب التاريخ فقد ذكر مؤرخو الروم انهم رأوا عدداً كبيراً من التماثيل البديعة الصنع في قصور الخلفاء في دمشق وبغداد . وروى مؤرخو العرب مثل ذلك عن قصور اسبانيا ومصر . وقد ثبت ان قصر عبد الرحمن الاموي كان يحتوي على تماثيل عديدة غاية في الاتقان

على ان التماثيل التي اصطنعها العرب فقد معظمها كما تقدم ولم يبق منها الا تماثيل ثمانية أُسود في قصر الحمراء (راجع صفحة ٢٥١) وتمثال آخر من البرونز في كمبوسانتو في بيزا بايطاليا وغيرها من التماثيل التي كانت تجري المياه منها

الزراعة

لم يكن العرب البدو في الجاهلية يعنون بالزراعة لان نوع معيشتهم وكثرة تنقلهم قضيا عليهم باهمال أمرها الاّ ما كان ضروريا لحياتهم . أما العرب المتحضرون الذين أنشأوا الدول العظيمة في العراق واليمن وسوريا كالحورابيين والحميريين والنبط والتدمريين والغساسنة فقد ذكرنا شيئاً عن اهتمامهم بالزراعة وما بلغته من الرقي عندهم وكفى بذكر سد مأرب وغيره من السدود العظيمة دليلاً على ذلك

ولما جاء الاسلام وافتتح العرب مملكتي الفرس والروم وجهوا عنايتهم الى الزراعة بعد ما أخذوا أصولها عن كتاب ديسقوريدس وغيره فاستنبطوا في بلادهم المرّ والبلسان والدوم والصفصاف والخيار والزنجبيل والتمر الهندي والنخل والقصب والحنطة والشعير والذره والبن والعفص والفلفل والرمان واللوز والفستق والمشمش والتفاح والسفرجل والاراك واللبان والياسمين والفل والورد والبنفسج وغير ذلك من الاشجار والنباتات المعروفة اليوم . ومن طالع الكتب

المؤلفة في هذا الفن ولا سيما كتاب الدينوري أدرك درجة الرقي التي بلغتها الزراعة في عهدهم

ويعزى انتشار زراعة القطن اليهم في سواحل البحر المتوسط . وقد شوهدت شجيراته نامية ونسيجه مستعملاً عند عرب الاندلس في القرن الاول للهجرة . وكان للعرب عناية خاصة بزراعته ولا سيما في عهد العباسيين . قال ابن البيطار : « ان بذور القطن مفيدة جداً والزيت المستخرج منها يستعمل في مداواة مرض النقرس « داء الملوك » والامراض الصدرية والجروح والتلبيخات . وقد بدأ الافرنج يعرفون القطن من ذلك الحين . »

وقيل ان الماشي في لشبونه كان يسير مسافة ٤٠ ميلاً طولاً و١٢ ميلاً عرضاً في ظل زيتونها وتينها ومما ذكر عن كلف الناصر بالزراعة انه أصلح جبل العروس الواقع في شمال الزهراء وزرعه تيناً ولوزاً فلم يكن منظر أجمل منه ولا سيما في زمن تنوّر الازهار

وراجت في عهده الزراعة وفاضت على الاندلس ينابيع الثروة وكانت جبايتها ستة آلاف ألف دينار قيل : كانت

الاندلس جنة من جنات الدنيا تتخللها الحدائق والغياض والبساتين كتاج رصّع بالزبرجد . وقد قال فيها الشاعر :

وكيف لا تبهج الابصار رؤيتها
وكل روضٍ بها في الوشي صنعاء
أنهارها فضــة والمسك تربتها
والخزّ روضتها والدرّ حصباء
وللهواء بهــا لطف يرق بــه
من لا يرق وتبدو منـه أهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحراً
ولا انتثار لآلي الطل انداء
وانما أرج الندّ استثار بها
في ماء ورد فطارت منه ارجاء

واشتهرت شنترة بجودة أرضها وحسن تربتها وغرسها قال ابن اليسع : ان التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر وقال عبد الله الباكوري وكان ثقة ان رجلاً من شنترة أهدى الى المعتمد بن عباد اربعـةً من التفاح ما يقل الحامل على رأسه غيرها دور كل واحدةٍ خمسة أشبار وكانت

مرسية تسمى البستان لـكثرة جناتها وكان بجوار المرية توت كثير وبها حرير وقرمز وكان فيها وادٍ طوله ٤٠ كيلومتراً في مثله عرضاً كله بساتين نضرة وحدائق بهجة وانهار وجداول

التجارة

انصرف العرب في الجاهليـة الى التجارة رجالاً ونساءً حتى صارت بلادهم صـلة تجارة بين جميع الامم لذلك طمع بهم الاسـكندر وغيره من الفاتحين . وكان لهم في جاهليتهـم أسواق عديدة يختلفون اليها في أوقات معينة من السنة للبيع والشراء وكانوا في اثناء ذلك يتنافسون في انشاد الاشعار .ومن أسواقهم المشهورة عكاظ كانوا يتوافدون عليها من كل جهة في كل المواسم للاتجار أو المفاخرة

ولما جاء الاسلام وحرَّضهم على التجارة راجت اسواقها ولا سيما في زمن الامويـين والعباسيين الذين عمت تجارتهم الآفاق وانهالت عليهم وعلى بلادهم الخيرات بأ كثر مما يحويه حصر أو وصف . وساعدهم على ذلك وجود المعادن بكثرة في ارضهم وبراعتهم في اسـتخراجها وسبكها وحسن صياغتها

وزخرفها والاتجار بها وكانت مالقه بالاندلس من أشهر الامصار بصنع الفخار المذهب ترسله الى أقاصي العالم وكذلك اشتهرت اشبيلية بمتاجرها العظيمة واشتهرت كورة باجه بدباغة الجلود وحياكة الكتان وامتازت المرّية بصنع الديباج . قال احد المؤرخين كان فيها لنسج الحرير ٨٠٠ نول وللديباج الفاخر الف نول ومثله لسائر المنسوجات فضلاً عما كان يصنع فيها من الآلات الحديدية والنحاسية والآنية الزجاجية البديعة مما جعلهم ينافسون بتجارتهم أمم الارض قاطبة . وقد كان لهم تجارة واسعة في افريقيا حتى في البلاد التي لا يصل اليها الافرنج اليوم الا بعناء شديدة كأواسط افريقيا وزنجيبار وموزمبيك وكردوفان ودارفور والسودان وجزيرة مدغسكر وغيرها . وكانوا يرسلون متاجرهم الى اوربا بثلاث طرق اولاً جبال البيرينة ثانياً البحر المتوسط ثالثاً نهر الفولغا الذي كان يصلهم بشمال روسيا واوربا . وكان تجار العرب يطوفون في فنلندا وأسوج والدنمرك وبولندا وغيرها بدليل ما وجد من النقود العربية في هذه الممالك . وقد احتل عرب الاندلس القسم الجنوبي من ايطاليا وفرنسا

والقسم الغربي من سويسرا ورفعوا اعلامهم امام حصون « متز » واتجروا مع جميع الامم التي تقطن في قلب اوربا . اما في آسيا فقد كان لهم صلة تجارية عظيمة بالهند والصين وسيبريا وكانت معاملتهم التجارية على استقامة ونزاهة لا ترى في غيرهم من الامم ولا بدع فانهم أبعد الناس عن المخادعة واقربهم الى الصدق والصراحة في القول وليس عجيباً ان تكون هذه اخلاقهم وهم قوم نشأوا في البادية على الفطرة الطبيعية لم تفسدهم التقاليد ولم يذلهم الاستبداد . ثم لما عظمت دولتهم تدفقت عليهم سيول الثروة غزيرةً بحيث لم يكن ما يكرههم على طلب الكسب من ابواب المخادعة بل ظلوا متنزهين عنها وكانوا يكرهون الاحتكار ويحرمونه الاّ في المواد الكمالية التي تضر المرء اكثر مما تنفعه كالخمر والتبغ وما أشبه ذلك . وكان اهتمامهم بالزراعة عظيماً فقد سئل احدهم عن الذهب والفضة فقال : « هما حجران يصطكان ان أقبلت عليهما نفدا وان تركتهما لم يزيدا . ان افضل المال برّة سمراء في تربة غبراء أو عين خرارة في ارض خوّارة » أي ان السبيل الى انماء الثروة هو العمل في استخراج الموارد

الطبيعية من الارض التي هي أفضل من المال . وذلك هو الاساس الحقيقي الذي تبنى عليه ثروة الامم

الصناعة

فاق العرب بالصناعة أمم الارض قاطبة فاستخرجوا في زمن العباسيين معادن الحديد في خراسان والرصاص في كرامان ونسجوا المنسوجات على أنواعها في العراق وسوريا والاندلس واستخرجوا القار والنفط وبرعوا في عمل الصيني والزجاج والرخام والملح الاندارني والكبريت وأتقنوا صناعة الدباغة ونسج القطن والكتان والتيل وبلغوا في حياكة الانسجة الحريرية والصوفية حدًّا من الابداع جعل الناس يضربون المثل في جودتها فكانوا يباهون بنصال سلاح اليمن وطليطلة ودمشق ومنسوجات غرناطة وجلود قرطبة وجوخ قونسية . وقد تفننوا في عمل السجاد والكشمير واشتهرت دمشق بمعامل السيوف فكان اهلها يصنعونها من صحائف رقيقة من الحديد والفولاذ فتنثني شفارها حتى المقبض ومع ذلك فانها تؤثر تأثيراً عظيماً في المواد الصلبة . وكان لهم

براعة خاصة لا يباريهم فيها احد بصناعة الذهب والفسيفساء

ويرجع الفضل في اختراع الورق « الكاغد » الى العرب فانهم لما احتلوا بلاد الفرس جعلوا يستخدمونه بدلاً



انموذج من الاقمشة العربية

من الرق (الجلود والاقمشة) . قال الدكتور غستاف لبون :

« لولا فضل العرب على صناعة الورق اضاعت نفائس مؤلفات الحضارة القديمة »

وكان العرب يصنعون الورق من الحرير ثم اكتشفوا طريقة صنعه من القطن و بلغوا فيها من الاتقان والجودة مالم يسبقهم أحد اليه وقد أنشأوا المعامل العظيمة في بغداد ودمشق والقاهرة وشاطبة و بلنسية وطليطلة وغيرها ونشروا صناعة الورق في اقطار العالم وهم الذين اخترعوا صناعة الورق من الكتان والتيل والخرق البالية



انموذج من المنسوجات العربية

قال الدكتور غستاف لبون : «ان الفضل في اختراع الورق من الخرق البالية يعود كله الى العرب فقد كان ذلك صعباً جداً لما يتطلبه من التراكيب الكيماوية والاعمال اليدوية العديدة.» وقال العلامة سديو : «ان العرب أنشأوا في

اسبانيا معامل لصنع الورق من الاقمشة البالية . واستعمل ورقهم هذا في القرن الثالث عشر في قسطيلة ثم نقل منها الى فرنسا وايطاليا وانكلترا والمانيا الآن ورق العرب يفوق ورق الافرنج لمعاناً ولطافة كما يفوقه بتزويقه وجمال لونه »



كأس عربي من الزجاج

وكذلك برزوا في صناعة النجارة والحدادة والحياكة والنسج والخياطة وغيرها كما تدل عليه آثارهم المحفوظة الى الآن

قيل ان عباس بن فرناس حكيم الاندلس كان اول

من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة واول من صنع الآلة المعروفة بالمثقال ليعرف الاوقات على غير رسم ومثال وقد احتال في تطيير جسمانه وكسى نفسه الرياش وشد له جناحين وطار في الجو مسافة ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه لانه لم يدرك ان الطائر انما يقع على زمكه فلم يعمل له ذنب ولو لم يكن ابن فرناس من مشاهير علماء الطبيعة عند العرب لقلنا ان في رواية المؤرخين هذه مبالغة عظيمة او انه اقدم على هذا العمل لعارض طرأ عليه ولكن ما ورد عنه في كتب العلم والتاريخ يحملنا على الاعتقاد بانه بنى عمله على اساس علمي متين ولا غروَ وهو الذي درس الطبيعة درساً متقناً وكشف كثيراً من نواميس الثقل النوعي واحكامه . وقد اصطنع في بيته هيئة السماء وخيل للناظرين فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود وغير ذلك مما يدل على علو كعبه في العلوم الطبيعية ولا يترك مجالاً للريب في انه واضع اول حجر في بناء فن الطيران الحديث وقد عرف المتأخرون من أدباء المصريين فضله فكتبوا على قاعدة تمثال أقاموه في ميدان الطيران بمصر الجديدة بيتين من الشعر وهما

ان يركب الغرب متن الريح مفتخراً
ما قصرت عن مداه حيلة الناس
فان للشرق فضل السبق نعرفه
للجوهري وعباس بن فرناس

***

خاتمة الكتاب

يرى القارئ مما تقدم اننا اوردنا في هذا الكتاب بعض مفاخر العرب بغاية ما يمكن من الايجاز واننا اقتصرنا على كليات علومهم دون جزئياتها وفروعها لاننا لو اردنا الاحاطة بها كلها لاحتجنا الى مجلدات ضخمة وقد جعلنا غايتنا من هذا المؤلف الصغير الاشارة الى ما احدثه العرب من الاكتشافات والاختراعات وما لهم من الآثار الخالدة في عالم الفنون والصناعة وما وضعوه من العلوم وما استدركوا فيها على المتقدمين من تصحيح أو تكميل مما ثبتت صحته وتناوله الخلف من بعدهم وهو ليس الا نقطة من بحرٍ او جزءاً من كل

ولسنا نزيد القارئ علماً ان مدة اشتغال العرب بالعلم لم تكن الا بضع مئات من السنين ولا ريب في ان مثل هذه المدة القصيرة في تاريخ الامم مع ما بلغوا اليه من الحضارة والمجد والرقي لم يكن ليتسنى لهم بلوغه لولا ما امتازوا به من بعد الهمة وصدق العزيمة وسمو المدارك والعقل والذكاء

ولا يخفى ان علوم الافرنج لم تكن لتبلغ ما بلغته الآن من الرقي لولا القواعد التي وجدوها في كتب العرب وكانت كلها كاملة صحيحة فلم تكن ثمت حاجة الى التنقيب والتحري والوضع والابداع مما يذهب بسني الحياة ضياعاً فكان مثل العرب مثل المؤسسين وقد قام الافرنج بعدهم بتشييد مباني العلم فوق ذلك الاساس المتين

والفضل فيما بلغ اليه العرب من الحضارة والعرفان يرجع لمدارسهم العظيمه وكلياتهم الجامعة التي كانت قاعدة تعليمها الانتقال من النظر الى المسببات ثم الى اجتلاء الاسباب لا يعولون الا على ما ظهرت صحته واتضحت حقيقته . وهذه القاعدة أخذها الافرنج عنهم وشادوا عليها أسس علومهم الحاضرة

ومن أشهر مدارس العرب وأعظمها تأثيرا في حضارة العالم مدارس بغداد والبصرة والكوفة وبخارى وسمرقند واصفهان ودمشق وحلب في قارة آسيا والقاهرة والاسكندرية ومراكش وفاس والقيروان في قارة افريقيا واشبيليا وقرطبة وغرناطه في قارة أوربا . قيل بلغ عدد المدارس الجامعة في قرطبة ثمانين مدرسة في عهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر المتوفي سنة ٣٦٦ ه

وقد فقد كثير من كتب العرب وثمار قرائحهم على ما بينا وفقد فيها شيء كثير من العلوم وذهبت بذهابها اسماء كثيرين من مصنفيها . على ان ضياع تلك الكتب لم يكن مما يؤلم النفوس لو بقيت الامة سائرة في مضمار اسلافها من التقدم ولكن الخمول الذي ضرب اطنابه فيها مع الانشقاق الذي نالها من تسلط يد الاجنبي دهراً طويلاً عليها ذهب بحضارتها ودثر علومها وآدابها . فكأن الدهر اخذ على نفسه نكايتها ولكنه لم يستطع ان يطفئ فيها نور الامل ويسكت على ممر الدهور ما ينطق بفضلها الجلل بل ظلت الروح العربية حيَة في صدور العرب تشجعهم على احتمال المصاب

وتبعث فيهم قوة على معالجة النوازل واجتياز الصعاب الى ان قدر لهم أخيراً النهوض من كبوتهم والاندفاع الى اعادة ما اندثر من علياء مجدهم. وأمة كهذه لن تموت ولا تظل صابرة الى آخر الدهر ، بل حق لها ان تسير في طلب الحضارة والاستقلال فاما الحياة واما القبر . على ان الحياة مكفولة لها والاماني تبتسم في وجهها واذا كان لكل مجتهد في هذا العالم نصيب فنصيب العرب من مؤتمر الصلح عظيم وهو قريب ان شاء الله

فهرست الرسوم

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهرست الكتاب

صفحة

الفصل الثالث (علوم العرب)

صفحة

الفصل الرابع (فنون العرب)

اصلاح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٨	١٣	وعاد	وعاداً
٢١	١	قنطار	قنطاراً
٢٧	٨	بالتبر	و بالتبر
٣١	٦	يحكموا	يحكمون
٣١	٦	يجعلوا	يجعلون
٣٣	٨	اوزلياس	اورليانس
٣٤	٧	قصر غمدان	قصر برقع
١٠٨	٢	فالتمسي	فالتمسي له
١٣٠	٧	الى زياد	لزياد
٢٤٥	٢	الطابق الثاني	الطبقة الثانية

وغير ذلك من الاغلاط المطبعية التي لا تخفى على القراء